كامل كيلانى

قصص علمية

DVD4ARAB

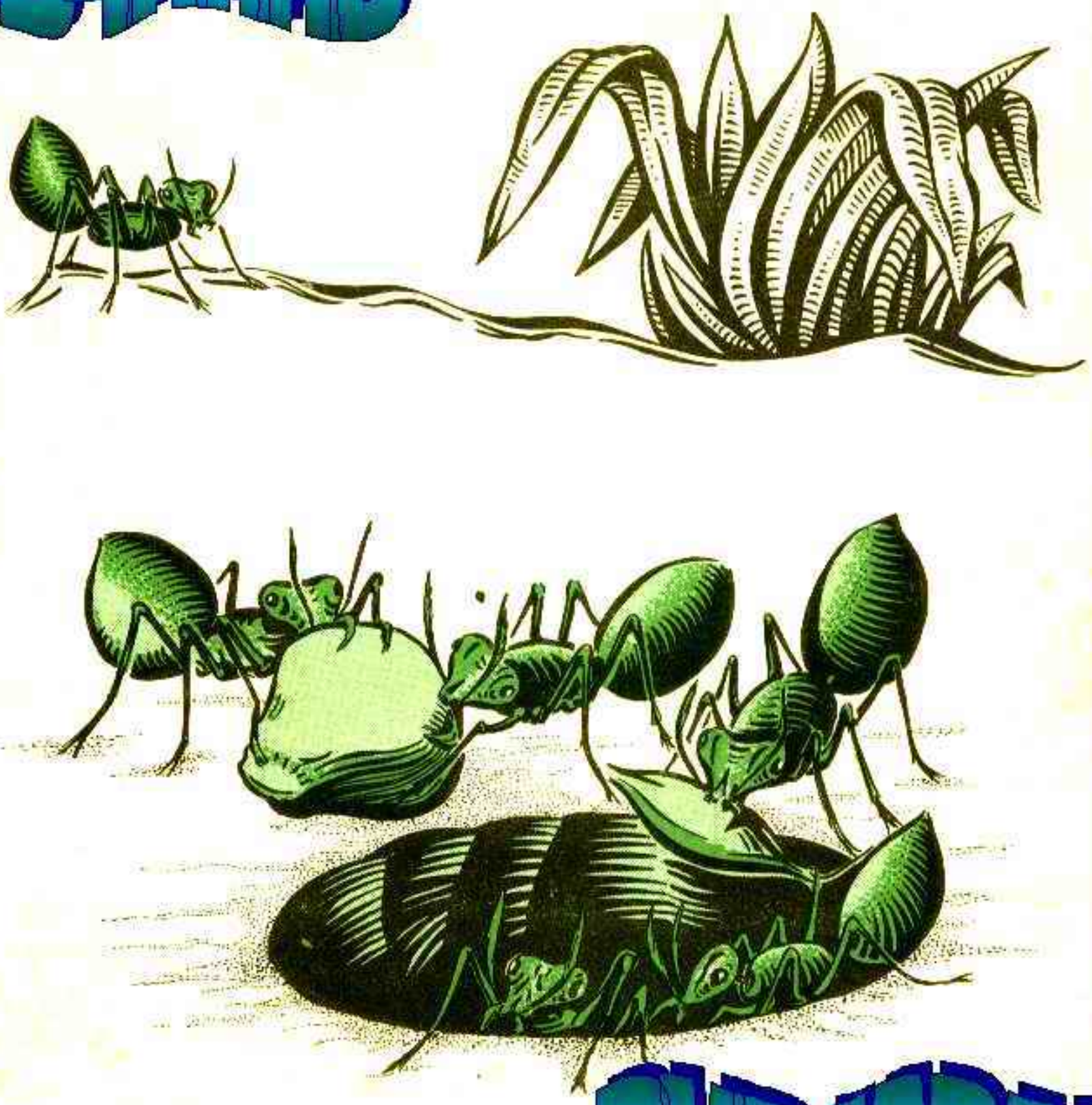

DVD4ARAB

مخاطرات أم مازن

دار المعارف

كامل كيلاني

قصص علميّة

مخاطرات أمّ مازن

الطبعة التاسعة

دار المعارف

١ — فاتِحَةُ القِصَّةِ

ما كانَ أسعدَهُ يومًا ، وأبْهَجَهُ احتفالًا ، حِينَ خرجتْ « أُمُّ مازِنٍ » من لَفائِفِها ، لتَسْتَقْبِلَ الْحياةَ بَقَلْبٍ طَروبٍ ، يَفيضُ بِشرًا وأملًا ، وقد التَفَّ حَوْلَها أهلُها وعشيرَتُها الأَدْنَوْنَ ، وتهافتوا إلى رُؤْيتها مُسرعينَ من أقاصِي القَرْيَةِ ، ليشتركوا في ذٰلك المِهْرَجانِ البهيجِ .

وكانت « أمُّ مازِنٍ » أصغرَ المَوْلُوداتِ التى نَجُبَتْ وترعرعت فى تلك القرية ، الحافلةِ بأهلِها من النَّمْلِ الأسْوَدِ الرَّمادِيِّ .

وقد فرِحَتْ ساكناتُ القرْيةِ بـ « أمِّ مازنٍ » فرحاً عظيماً . وكانت قريةُ النمل مُعْجَبَةً بوَسامَةِ هٰذهِ المولودةِ ، فرِحةً بما يَبْدُو عَلَى سيماها من أماراتِ النَّجابَةِ ، مُؤَمِّلَةً فيها أحسَنَ تأميل .

٢ — بِنتُ الشيْصَبانِ

واقتربتْ منها « بِنتُ الشَّيْصَبان » ، وهى أكبَرُ نِمالِ القرية سِنّاً ، وأكثرُهُنَّ تجرِبَةً ، وأقبلتْ على الطِّفلةِ الناشِئةِ تُداعِبُها ، قائلةً :

« يا لها مِنْ جَميلةٍ فاتنة ! لقدْ فاقتْ — على صِغَرِها — بناتِ جِنْسِها : حُسْناً ومَلاحةً . فَلْنُطلِقْ عَلَيها مُنْذ اليَوْمِ : « أمَّ مازِنٍ » ، ولْنُنادِها بذٰلكِ ، لنكرِّمَها بهٰذه التَّكْنِيَةِ ، ونُميِّزَها عَنْ رَفيقاتِها من بناتِ القرية . »

وكانَتْ « أمُّ مازن » — كإخوتِها جميعاً مِنَ النمل — مِثالاً للنَّشاط والجدِّ والمُثابَرةِ ، تَتَلأْلأُ فى رأسِها الجميلِ عُيُونٌ خَمسٌ بَرَّاقَةٌ ، ثِنْتانِ مِنْها كبيرتان على جانِبَيْ رأسِها ، وثلاثٌ صغيرةٌ فى وَسَطِ جَبْهتِها .

ولن يَفُوتَني أنْ أحدِّثَكُمْ عن قرْنَيْها الصَّغيرَيْنِ الناتِئَيْنِ فى رأسِها . ولعَلَّكمْ تعْرِفونَ أن القرُونَ للنمل ، كالْيَدَيْنِ للإنسانِ ؛ فإنَّ كلاًّ مِنْها يصْلُحُ للَمْسِ الأشْياء .

٣ — فى الطَّريق

وخرجَتْ « أمُّ مازن » منْ قرْيَتِها ، لِلمرَّةِ الأولَى فى حياتها . ثُمَّ سارَتْ فى طَرِيقِها — عائِدَةً إلَى بيتها — بعد أن أتَمَّتْ نُزْهتَها . وما زالتْ تَمْشِي مُتَّئِدَةً ، بَطِيئَةَ السَّيْرِ فى طريق مملوءةٍ بالحَصَى ، وهى تَلْقَى فى سبيلها ، من أَلْوانِ التَّعَبِ والعَناء ، ما لا قِبَلَ لغيرها باحتماله .

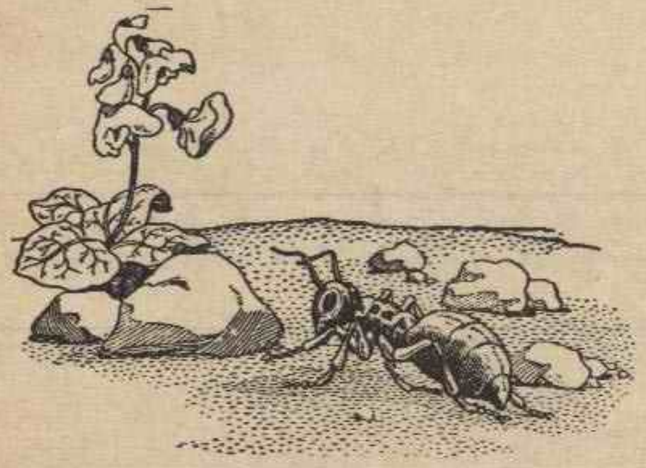

ولاعَجَب فى ذٰلك ، فإن صِغارَ الحَصَى التى كانَتْ تعْترِضُ « أمَّ مازنٍ » فى طَرِيقها ، هى — على الحَقيقَةِ — جبالٌ شاهِقَةٌ بالقِياسِ عَلَيْها !

أُنظروا إليها ، وهى تَمْشِي جادَّةً مُسْرِعَةً فى سيرها ، على قدْرِ ما تَسْتطيع

أقدامُها النَّحِيفَةُ المُتناهيةُ فى الضآلَةِ . وتأمَّلوا : كَيْفَ تَلْمُسُ الأرْضَ بأحَدِ قَرْنَيْها ، قَبْلَ أن تَخْطُوَ خُطْوَةً واحدةً . فهى تَتَحَسَّسُ الأشْياءَ بقَرْنِها الأيْمَنِ مَرَّةً ، وبقرنها الأيْسَرِ مَرَّةً أخرى ، مُسْتَهِينَةً بكلِّ ما تَلْقاهُ فى طريقها من العَقَباتِ والمَصاعِب ، مُتَقَدِّمَةً — فى صَبْرٍ ومُثابرة لا مَثيل لَهُما — حتى تَبْلغَ غايتَها ، أو تموتَ دُونَها !

وكانت « أمُّ مازِنٍ » تُحَدِّثُ نَفْسَها ، قائلةً :

« يا لَها منْ طَرِيقٍ مُتْعِبَةٍ شاقَّةٍ ! فليْسَ يَخْلُو مَكانٌ فيها من حُفْرَةٍ ، أو هاوِيَةٍ ، أوْ أُخْدُودٍ . وليْس أجْدَرَ مِنِّى بالأناةِ والحَذَرِ ، حتى أعودَ إلى قَرْيَتِى سالِمَةً ! »

ولقد صدقتْ « أمُّ مازن » فيما حدَّثتْ نفسَها بهِ ، فقد كانت الطريقُ الوعْرَةُ المَخُوفَةُ ، تتطلَّبُ مَهارَةَ النَّمْلَةِ وحَزْمَها ، لتَخْرُجَ منها ناجِيَةً من كلِّ سُوءٍ ، فلا تُكْسَرَ إحدَى أرْجُلِها ، ولا تصابَ بأىِّ عَطَبٍ .

ولقد أصابَ وصدَقَ من سَمَّاها : نَمْلَةً . فهى — فى الْحَقِّ — كثيرةُ التَّنَمُّلِ ، دائِبَةُ التَّحَرُّك . فلا عَجَبَ إذا أطلقوا عليها هٰذا الاِسمَ الذى يَدُلُّ على الْحَرَكَةِ والنَّشاطِ !

ها هُوَ ذا جَبَلٌ تَتَسَلَّقُهُ « أمُّ مازِنٍ » ، جادَّةً مُثابِرَةً — عَلَى ما تُحِسُّ بهِ من تَعَبٍ نَهَكَ قُواها ، وأضْنَى جسمَها — حتى تُدْرِكَ غايتَها .

٤ — الرَّفيقَتان

وإنَّها لَتَسِيرُ جادَّةً ، وقَدْ بَلَغَ بها الإعْياءُ كلَّ مَبْلَغٍ ، إذْ لَمَحَتْ نَمْلَتَيْنِ — من بناتِ جِنْسِها — خَرَجَتا منَ القَرْيَةِ لِلاِحْتِطابِ ، وقد حَمَلَتا فَرْعاً صغيرًا من فُرُوعِ النَّباتِ ، وهما عائدَتان فى طريقِهما إلى الْبَيْتِ .

ولقد جَهَدَهُما حَمْلُ هٰذا الفرْعِ الصَّغِير ، وقَدِ اعتزمَتا أن تُصْلِحا بهِ إحْدَى غُرَفِ القَرْيَةِ التى انهارتْ فى أثناء الليل . وكانَ ذٰلك الفرعُ — بالْقِياسِ إليهما — كأنَّهُ جِذْعُ شَجَرَةٍ كبيرة !

وكانت الحاطِبَتانِ تَبْذُلانِ أقصى جُهْدَيْهِما لتَجُرَّاه ، حتى ضَعُفَتْ قُواهُما ، وتعذَّرَ عليهما أن تتقدَّما به خُطوةً واحدة إلى الأمامِ . ولا عَجَبَ فى ذٰلك ، فقد كان — على صِغَرِه — ثقيلًا ، وكانتِ الأرضُ — الَّتى تَدِبَّان عليها — صَخْرِيَّةً .

فلما رأَتْهُما « أمُّ مازِنٍ » عَرَفَتْهما ، وأدركتْ ما تُعانِيانِ من جَهْد ، فتقدمتْ إليهما ، قائلةً :

« كيف أنتما ؟ هَلُمَّا تعاونْ على جرِّ هٰذا الحِملِ الثقيلِ ! »

ولم تضِعْ « أمُّ مازن » وقتها عبثاً ، بل انضمَّتْ إلى الحاطِبتَيْنِ ، وعاونتْ رفيقتيْها على جرِّ الفرعِ ، حتى بَلَغْنَ به ذِرْوةَ التَّلةِ الصغيرةِ العاليةِ .

ثم قالت « أمُّ مازنٍ » لِرَفيقتَيْها :

« لقد أدَّيْتُ واجبي — يا رفيقتَيَّ — فوَداعاً ، وإلى اللقّاءِ القريب ! »

فشكرَتا لها ما بَذَلَتْ — في مُساعدَتِهما — من جهْدٍ وعَناء .

٥ — المَــطر

ثم سارتْ « أمُّ مازن » في طريقها ، حتى لَقِيَتْ جَمْهرَةً من النَّمْلِ ، جادَّةً في السَّيْرِ . ورأتْ إِحداها تَحْمِلُ ولدَها الصغيرَ ، وقد احتضَنَتْه في ثوبها الشَّفَّافِ . ورأتْ جماعةً أُخرى تحمِلُ أعواداً صغيرةً — في مثلِ أحجامِ الإبَرِ — من شجرِ الشوْحِ ، وبقايا ورَقِ الأشجارِ الأخرى .

وإنها لسائرةٌ في طريقِها — وادعةً قريرةَ النفسِ — إذْ سمِعَتْ جَلْجَلَةً تُدَوِّي في الفَضاءِ ، فقفَزَتْ خائفةً مذعورةً . ولم تَدْرِ مَصْدَرَ تلك الجَلْجَلَةِ الرّاعِدَةِ ، لأنها لم تسمعْ صوتَ الرَّعْدِ ، قبلَ اليومِ .

وذُعِرَت رفيقاتُها النِّمالُ التي كانت تسعَى بين الحشائشِ .. وأسرعت إلى قريتِها عائدَةً ، حين سَمِعَتْ قَصْفَ الرُّعودِ المُدوِّيَة .

أمَّا صاحبتُنا « أمُّ مازن » فقد سَرَتِ الرِّعْدةُ في جسمِها ، من فَرْطِ الخَوْفِ ، وأسرعَتْ في جرْيِها صَوْبَ البيتِ . ولٰكنها لم تكَدْ تُكْمِلُ عشْرَ خُطُواتٍ ، حتى أحَسَّتْ كأنَّ هِراوةً ضَخْمَةً هوَتْ على رأسِها بضربةٍ قاتِلَةٍ . فصرخَتْ من فرْطِ الألمِ والخوفِ ، وهي تتدحرَجُ على الأرض :

« آه ! لقد تحطَّمْتَ ، يا رأسِيَ المِسْكينَ ! »

ولم تكن هٰذه الضربةُ القاتلةُ التي كادتْ تُذْهِلُ « أمَّ مازن » إلَّا نقطةً كبيرةً منَ المَطرِ . ثم تبِعتْها نقطةٌ أخرى فوق ظهرِها . ثم ثالثةٌ ، ثم توالت قطراتُ المَطرِ . فاشتَدَّ جزعُ « أمِّ مازن » ، وأيقنتْ بالهلاكِ . وصاحَت مُغَوِّثةً تطلبُ النجدةَ ، وقد تَمَلَّكها الذُّعْرُ : « أغيثوني ! أدركوني ! النجدةَ يا رفيقاتي ، فإن أعدائي تأتَمِرُ بي لِتَقْتُلَني ! »

فلم يسمعْ صِياحَها أحدٌ ، وذهبَ صُراخُها أدراجَ الرِّياح . فأسرعت — في جرْيِها يَمْنةً ويَسْرةً — وهي لا تدري : إلى أين تقصِدُ ، وقد غمرَ المَطرُ كلَّ مكانٍ ، والتصقتْ أرجلُها بِجِسْمِها الصغيرِ .

ولٰكنها رأتْ — لحُسْنِ حظِّها — حَقلًا على قِيدِ (مَسافةِ) خُطُواتٍ منها .

ولاحتْ أمامَها سنابلُ القمحِ الذهبيَّةُ فَخُيِّلَ إليها أنه غابةٌ . فأسرعت إلى الْحَقلِ ، لتأمَنَ غائلةَ المطرِ .

٦ — بين سنابلِ القمحِ

ومشتْ « أمُّ مازن » بين سنابِلِ القمحِ ، تبحثُ عن مكانٍ جافٍّ ، ثم وقفتْ تسترِقُ السَّمْعَ ، وتقول فى نفسِها :

« تُرَى هل بلَغتُ الْمأْمَنَ ؟ تُرَى هل يُفاجئُنِى أحدٌ من أعدائى فى هٰذا المكانِ ؟ تُرَى ماذا تَخبَؤُه السنابِلُ العالية من مُفاجئات ؟ ما أظنُّ أحدًا فيها، فإنى لا أسمعُ حركةً لكائنٍ كان . فلْأَبْقَ وحيدةً فى هٰذا الحَقْلِ الأمين . »

ولكنها شعرتْ بالبردِ يَسرِى فى جسمِها . فاشتدَّ ندمُها على خروجِها فى ذلك اليوم ، وضاعف حُزْنَها أنها بعُدتْ عن بيتِها ، وتعذَّرتْ عودتُها إليه .

وقالت تُناجِى نفسَها ، وتلومُها على مُخاطرَتِها :

« لا شكَّ أن أخواتى سيتألَّمْنَ ، ويَقْلَقُ بالُهُنَّ لِغَيْبَتِى ... ولٰكنْ ماذا أرى ؟ إنى لألمَحُ أشبهَ شيءٍ بالسَّطحِ فوق هٰذه السنابِلِ . . . مَرْحَى ! فقد وجدْتُ بُغيَتِى ، فلأتسلَّقْ هٰذه الساقَ الطويلة ، لأُصْبِحَ آمنةً من كلِّ خطرٍ . »

ولٰكنها لم تكدْ تَفعلُ ، حتى سمعَت صوتًا راعبًا ، يصيحُ قائلًا : « مَنِ القادمُ ؟ »

فارتعدتْ « أمُّ مازن » وأصبحت — من فرْطِ خوفها — بِمَنْزِلَةٍ بين الحياة والموتِ ، وتدَحْرَجَتْ إلى الأرضِ مُسْرِعَةً .

ثم نظرتْ « أمُّ مازن » ، فرأتْ دابَّةً سمراءَ اللونِ ، هابطةً من سُوق القمحِ . وأنعمَتِ النظرَ فيها ، فرأتْها هائلةَ الجِرْمِ ، طويلةَ الجسمِ ، مُحَدَّدَةَ الرأسِ ، تَمْشى على أربعٍ ، ولها ذنبٌ صغيرٌ ، وعينان برَّاقتان .

فقالتْ « أمُّ مازن » ، بصوتٍ متهدِّجٍ ، وقد استولى عليها الذُّعْرُ :

« عَفوًا ياسيدتى ، واصفَحى عن زلَّتى ، فإنها غيرُ مُتعمَّدَةٍ . . . وها أنتِ ذى تَرَيْنَنى مُبلَّلةَ الجسمِ ؛ وقد أصبَحْتُ أجدرَ مَخْلُوقةٍ بالعطفِ والرِّثاء . وقد أوَيتُ إلى هٰذا المكانِ — لَحْظَةً يسيرةً — لعلِّى آمَنُ الأخطارَ ، وأتَّقى الغَوائلَ . ولم أكدْ أستقرُّ تحت السنابل . . . »

فقاطعَتْها الدابةُ السمراءُ قائلةً : « لعلكِ تَعنينَ بيتَنا ! »

فقالت « أمُّ مازن » : « عُذرًا — يا سيدتى — وصفحًا . فإن المطرَ قد كَفَّ عن الْهُطولِ ، فيما أظنُّ . وفى قُدْرتى أن أعودَ أدراجى ، إذا أَذِنْتِ لى ، حتى لا أُزعِجَكِ . »

فقالتْ لها الدابَةُ السمراء :

« تريَّثى قليلًا ، فلن آذنَ لكِ ، قبل أن أسألَ أُمِّى فى أمرِكِ ! »

فقالت « أمُّ مازن » : « كلّا ، كلّا — يا سيدتى — لا تناديها ، ودعينى أمضِ فى سبيلى ؛ فإنى جِدُّ خائفةٍ . وحُقَّ لى أن أخافَ ، فإن هٰذه هى أولُ مرَّةٍ أَخرُجُ فيها من قريَتى . . . ولستُ أعرِفُ أحدًا . . . . »

فقالت الدابَّةُ السمراء : « إنى أجهَلُكِ ، ولا أعرِفُ أىَّ مَخلوقٍ أنتِ . فمن تكونين ؟ »

فقالتْ لها « أم مازن » : « أنا نملةٌ صغيرةٌ سوداء . . . . »

فصاحت الدابَّةُ : « نَمْلَةٌ أَنْتِ ؟ كلّا ، وكذَبْتِ فى زَعْمِكِ . فإن أُمِّى قد أَرتنى نَمْلَةً — ذاتَ يوم — لها أربعةُ أَجنحةٍ بِيضٌ . ولستُ أرى لكِ أجنحةً . . . وهٰذا دليلٌ على أنك لستِ نملةً كما تزْعُمِينَ ! »

فقالتْ لها « أمُّ مازن » :

« كلّا ، يا سيِّدَتى ، فإنى لَمْ أَكْذِبْكِ شيئًا مما قلتُ . . . وإنما أنا نَمْلَةٌ عاملةٌ . . . وليس لبناتِ جِنسى أجنحةٌ ، ما عدا الآباءَ والأُمَّاتِ أمَّا العاملاتُ — من مثيلاتِى — فلا أجنحةَ لَهُنَّ . »

فقالتِ الدابةُ السَّمْراء :

« أَعاملةٌ أنتِ إِذَنْ ؟ شَدَّ ما تُضْحِكيننى بهٰذِهِ المُداعَبةِ الظريفةِ ! إنى لَأَحارُ ، إذا حاولْتُ أن أَتعَرَّفَ : أىَّ فائدةٍ تعودُ على أحدٍ ، من حَشَرَةٍ صغيرة فى مِثْلِ ضآلَتِكِ ؟ وماذا يَستطيعُ مثلُكِ أن يَعْمَلَ وهو بهٰذه الْحَقارَةِ ؟ »

فأجابتها « أمُّ مازنٍ » : « إنَّنى لَمَّا أَبْدَأْ عَمَلِى كلَّهُ . فلم أَزَلْ حَديثةَ عَهْدٍ بالدُّنْيا ، ولقدْ دَهِمَتْنِىَ العاصِفَةُ ، ولَمْ أَكَدْ أَنْتهى من حَلْبِ بقَراتِنا . »

فعجبتِ الدابَّةُ السَّمْراء ، وقالتْ لها ، جِدَّ مَدْهُوشَةٍ :

« أىَّ بَقَراتٍ تَعْنِينَ ، أَيَّتُها الْبَلْهاء ؟ أَهى بقراتٌ حقيقيَّةٌ ، ذاتُ قُرُونٍ ، كالتى نراها فى الحقول ؟ شَدَّ ما طوَّحَ بكِ الْخَيالُ ، فأَصْبَحْتِ تَسْبَحِينَ فى عالمِ الأحلامِ ، أيَّتُها الصَّغيرةُ الْحَمْقاء ! كيفَ تحاولين أن تُقنِعينى أنَّ نَمْلَةً ضئيلةً مثلَكِ تستطيعُ أن تَحْلُبَ بقرةً كبيرَةَ الْحَجْم هائلةَ الْجِرْم ؟ . . . ها ها ها . . . ! »

فقالتْ « أمُّ مازنٍ » : « إنَّ بقراتِنا — يا سيِّدتى — صغيرةٌ جدًّا . إنَّها — لَو عَلِمْتِ — براغيثُ ، ضئيلةُ الْحَجْمِ ، تَعِيشُ فَوْقَ الأشْجارِ . وقد كنتُ — اليومَ — أُداعبُها بقَرْنَىَّ مُتَلَطِّفةً ، فيَدُرُّ جسمُها علىَّ

قطراتٍ لذيذةَ الطَّعْمِ ، فى مثل حلاوةِ السُّكَّر .

ولَقَدْ شَعَرْتُ الآنَ بألم الجوع . فهل تأذنين لِى — مُتَفَضِّلَةً — أنْ أَعُودَ إلى بَقَراتى ، فأحلُبَها ، وأَستَدِرَّ منها طَعامىَ الشَّهِىَّ ، ثم نلتقىَ بعدُ ؟»

فاقتربت الدابةُ السَّمْراء من « أمِّ مازنٍ » ، ونظرتْ إليها بعينيها الكَبيرتَيْنِ ، ثم قالتْ لها :

« كلا . . . كلَّا . . . لَنْ آذنَ لَكِ فى الذَّهاب ، ولن أسمحَ لكِ بالانصرافِ ، قبلَ أنْ تُخْبِرينى باسمِكِ . »

فارتاعتْ « أمُّ مازن » المِسْكينَةُ ، وتراجعتْ إلى الوَراء مَذْعُورَةً .

فقالتْ لها الدابَّةُ السمراء : « هَلُمِّى ، فَخَبِّرينى باسْمِكِ . . . أجيبى ! »

فأجابتها بصوتٍ خافتٍ مَحْزُون : « اسمى : أمُّ مازن . »

فقالت لها الدابَّةَ السَّمراء : « أما أنا ، فيَدعونَنى بـ « أمِّ راشِدٍ » . »

فقالت « أمُّ مازن » : « ما أبْدَعَها كُنْيَةً ، يا عزيزتى : أمَّ راشد ! »

فاهتزَّتْ « أمُّ راشد » قائلةً :

« إنى فأرةٌ صغيرة . أسكنُ مع أهلى هٰذا العُشَّ الذى تَرَيْنَه فوقَ رَأْسَيْنا . »

فنظرَتْ « أمُّ مازن » ، فرأتْ — فى أعْلى سنابلِ القمح — كُرَةً كبيرَةً معلَّقةً بينها . فصاحت مَدْهُوشةً :

« كيف تقولين ؟ أهٰذا هو عُشُّكِ ، يا « أمَّ راشِدٍ » ؟ إنه لا يُماثلُ بُيوتَ النملِ . »

٧ — « أمُّ أَدْراص »

وصاحت « أمُّ راشدٍ » تنادى أُمَّها بأعْلَى صوتِها . فخرجَتْ من العُشِّ فأرةٌ أكبرُ منها ، ثم قالتْ لها ، وهى تُدانيها :

« آه ! ها أنت ذى ، يا بُنَيَّتِى العزيزةَ . وقد كنتُ فى قلقٍ عليكِ — يا « أمَّ راشد » — فما تصنعينَ هنا وحدَكِ ؟ »

فأجابتها « أمُّ راشد » :

« لستُ هنا وحدى ، يا أمى . فانظرى إلى هٰذه الزائرةِ الصغيرةِ . »

فقالت « أمُّ أدراص » :

« آه ! صدقتِ ، يا « أمَّ راشد » ، فإنها نَمْلةٌ . وما أظنها إلا شاردةً ضَلّت الطريقَ إلى بَيْتِها . أليس كذٰلكِ ، أيتها النملة الصغيرةُ ؟ »

• • •

فلم تستطعْ « أمُّ مازن » أن تُجيبَها بكلمةٍ واحدة .

فانبرت « أمُّ راشد » قائلةً :

« إنها تُدْعَى « أمَّ مازنٍ » ، وقد دَهِمَتْها العاصفةُ ، فيما تقولُ . »

فقالتْ « أمُّ أدْراصٍ » : « خَبِّرِينى ، يا صَغيرتى العزيزةَ : أَلَسْتِ تَقْطُنينَ تلك القرْيةَ العامرةَ ، الّتى فى أسْفَلِ شجرة البُرْقوقِ الكبيرةِ ؟ »

فأجابتْها « أمُّ مازنٍ » : « صَدقتِ — يا سَيِّدتى — فإنَّ بَيْتَنا هُناكِ ، بالْقرب مِنْ جِذعِ تلكِ الشجرةِ . »

فقالتْ « أمُّ راشدٍ » : « لَعَلَّ أمَّكِ شَديدَةُ القَلَقِ عَلَيْكِ ، بَعْدَ أنْ طالتْ غَيْبَتُكِ ! »

فقالتْ « أمُّ مازنٍ » : « تقولينَ : أمِّى ، ولست أعْرِفُ أنَّ لِى أمًّا ولَدتْنى ؟ ! »

فسألتْها « أمُّ راشد » : « أتَعْنينَ أنَّها قد ماتَتْ ؟ »

فأجابتْها « أمّ مازنٍ » : « ذٰلكِ ما أجْهَلُهُ الْجَهْلَ كُلَّهُ . فإنّى لَمْ أرَها قَطُّ ! »

فسألَتْها « أمّ راشدٍ » : « إذًا فمَنْ كان يَتَعَهَّدُكِ بالْغِذاء ، فى أثْناء طُفولتكِ ؟ »

فقالتْ « أمّ مازن » :

« كانتْ مُرْضِعاتُنا العامِلاتُ يَتَعَهَّدْنَنا ، ويَسْهَرْنَ على راحتِنا . وإنّى أُؤَكِّدُ لكِ أنَّهُنَّ لَمْ يُقَصِّرْنَ فى تَلْبيَةِ رَغَباتِنا ، والعِنايةِ بأَمْرِنا . »

فقالتْ « أمّ راشد » : « أليْسَ لكِ مثلُ ما لَنا — مَعْشَرَ الفَأْرِ — أُمًّا حَنُونًا ، تَتَعَهَّدُكِ ببِرِّها وعَطفِها ؟ يا لَكِ مِنْ شَقِيَّةٍ تاعِسَةٍ ! »

فقالتْ « أمّ مازن » : « إنَّ لنا — مَعْشرَ النَّملِ — أُمّاتٍ . ولٰكِنَّهُنَّ يُحْبَسْنَ فى غُرْفةٍ بعَيْنِها — مِنْ غُرَفِ القَرْيةِ — ويَقْضِينَ فيها أعمارَهُنَّ ، كلُّها ، لِيَبِضْنَ .

وقدْ حَدَّثونى أنّى حِينَ كُنْتُ إحْدَى ذٰلكِ الْبَيْضِ الصَّغيرِ . . . »

فقاطَعَتْها « أمّ راشِدٍ » قائلةً :

« لقد كنتُ أحسَبُ أن الطيورَ هى — وحدَها — التى تبيضُ ! »

فقالتْ « أمّ مازن » : « نعم ، وكنتُ — مُنْذُ زمَنٍ يسيرٍ — شَيْئاً مستديراً ، غايةً فى الصِّغَرِ ، ولم يَكنْ لى رأسٌ ، ولا أرْجُلٌ ، ولا أعيُنٌ ... ولست أذكرُ ذلك الزمنَ جيِّدًا . »

فقالتْ « أمُّ راشد » ، ضاحكَةً : « لقدْ فهمتُ ما تعنينَ ، فقد كنْتِ فى ذلكِ الوقتِ جَنيناً ؛ لَم تَتِمَّ خِلْقَتُه ، ولم يتكوَّنْ رأسُه بعْدُ . »

واستأنفتْ « أمُّ مازن » قائلةً : « وفى ذاتِ يومٍ انْشَقَّ ذلكِ البَيْظُ — فيما حدَّثتْنِي مُرْضِعَتى « أمُّ مشغُولٍ » — وخَرَجَتْ منْ واحِدةٍ مِنْهُ : دودةٌ بيضاءُ . وكانت هٰذه الدودةُ هى أنا !

وقد كنتُ — حينئذٍ — جدَّ سعيدةٍ . وكانتِ المرْضعاتُ يُغَذِّينَنى — فى ذلكِ العهْد — كلَّ صَباحٍ ، ثم يَحْمِلْنَنى إلى ضَوْءِ الشمسِ ، وَيدْلُكْنَ جسمى ، ويَلْعَقْنَهُ ، حتى إذا أمْسَيتُ حَمَلْنَنى إلى البيت . . . وقدِ انقضى هذا الزمنُ السعيدُ إلى غيْرِ عَوْدَةٍ ؛ فما كان أطيَبَهُ ، وأرْوَحَ ذِكْراهُ !

ثم أُصِبْت بمرَضٍ ، خُيِّلَ إلىَّ أن آخرَتى قد قَرُبتْ ، وأصبحتُ لا أستسيغُ الطعامَ ، ولا أستمرئُ الغِذاء ؛ ويئسْتُ من البَقاء فى هذه الدنيا ، ووَطَّنتُ نفسى عَلى لقاء الموْتِ .

• • •

وثَمَّة سمعتُ صَوْتاً يَصيح : « تَغطَّىْ أيتها الدودةُ الصغيرةُ ، والتفِّى بهٰذا الْخَيطِ الدقيقِ ، الذى تُخْرِجينَهُ من فَمِكِ . »

فلَبَّيْتُ ذلكِ الدُّعاءَ من فوْرى . . . ولم أكدْ أفعلُ ، حتى وَجَدْتُنى مَحْبوسَة فى كِيسٍ ! »

فقالتْ « أمُّ راشد » مُتَبرِّمَة : « مَحْبوسةً داخلَ كيسٍ ؟ لو صحَّ ذلكِ لاختنقتِ ، أيتها الْمِسْكينةُ التاعِسَةُ ! »

فقالتْ « أمُّ مازن » : « كلَّا ، لم أختنقْ ، بل نِمتُ نوماً عميقاً وانتقلتُ — منذُ ذلكِ الْحِينِ — من طَوْرِ الدُّودِيَّةِ إلى طَوْرِ النَّمليَّةِ . فأصبحتُ — حينئذٍ — عروساً من عرائسِ النَّملِ ، ملفوفةً فى أفوافِ الحَريرِ .

ولما استيقظتُ من سُباتى (نوْمى العميقِ) ألْفيتُنى قد انتقلْتُ إلى حالٍ مُغايِرَةٍ لِحالى الأولى كلَّ الْمُغايَرَةِ . فأصبحتُ مَخْلوقةً أخرى وصار لى ستُّ أرجُلٍ ، وانقَسَمَ جسمى أقساماً ثلاثةً ؛ فاستَوْلَى عَلَىَّ الفَرَحُ ، وصِحْتُ مبتهجةً :

« مَرْحَى ! مَرْحى ! لقد أصبحتُ الآن فى عِدادِ الْحَشَرات ! »

عَلَى أن فرحى لم يَدُمْ طويلاً ، فقد كان قصير المَدَى . وقد علمتُ أننى كنت — إلى ذلكِ الْحِينِ — سجينةً فى الكيس الذى حدَّثْتُكِ عنهُ .

ولم أكن — حينئذٍ — أستطيع حَرَاكًا . وثَمَّةَ أيقنتُ بالهَلاكِ مَرَّةً أخرى ، وحزِنتُ لذلكِ ، فاستسلمتُ للبكاء . »

فصاحَتِ الفأرتان : « لكِ اللهُ ، أيتها الصديقة التاعِسَة ! »

واستأنفت « أمُّ مازن » قائلةً :

« ثم لبِثتُ أبكى وقتًا طويلاً . وإنِّى لَغارِقَةٌ فى أحزانى ، مستسلمةٌ لآلامى ، إذْ طَرق سمعى دبيبُ خُطُواتٍ . فصحتُ مُغَوِّثةً أطلب النَّجْدةَ . ثم شعَرْتُ بأن رفيقاتى الكبيراتِ يَثْقُبْنَ تلكِ القِشرةَ التى تُحِيطُ بجسمى . وما كِدْنَ ينتهِين من ذلكِ ، حتى اقتربتْ منى إحدى العاملاتِ ، فأمسكتْ برقبتى ، وجرَّتنِى إليها ، بكل ما أُوتِيَتْ من قوَّة . فَصرَخْتُ متألِّمةً :

« آه ! ترَفَّقى بى — يا سيدتى — فقد آلمْتِنى أشدَّ الألمِ ! »

وكانت تلكِ المُرضِعةُ — فيما يُخيَّلُ إلىَّ — صمَّاءَ ، لا تسمعُ . فقد ظلَّتْ تَجُرُّنى ، ولم تأبَهْ لصيْحاتى ، ولم تُصْغِ لتأوُّهاتى ، واقتربَتْ جَمْهَرَةٌ منَ العامِلاتِ ليساعِدْنَها فى ذلكِ . وما كِدْن يفعلن ، حتى سمعتُ صَوتَ القِشرةِ التى تكتنِفُ جسمى ، وهى تتكَسَّرُ .

وهكذا خرجْتُ من سِجْنِى الضيِّقِ ، وأنا أضعفُ ما أكون . وقد أُغْمِىَ عَلَىَّ من فرطِ الألمِ والضَّنَى .

ثم أحاطتْ بِىَ الْمُرْضِعاتُ الحانياتُ ، والعاملاتُ الرَّفيقاتُ ، وظَلِلْن يَدْلُكْنَ جسمى ، حتى أيقظْنَنى من غَشْيَتى ، وأَعَدْنَ إلىَّ رُشْدِى بعد زمنٍ قليل . . ثم مَرَّتْ بى أيامٌ قليلةٌ ، فشعَرْتُ بالقُوَّةِ تَسْرِى فى جسدى شيئًا فشيئًا ، حتى أصبحتُ كما تَرَيانِ ، أيتها الصَّديقتان ! »

٨ — فى طريقِ النمل

فقالت « أمُّ أدراصٍ » :

« ما أجملَ قِصَّتَكِ ، يا « أمَّ مازن » . فوداعًا أيتها الصديقةُ الصغيرةُ ، فإن زوجى « أبا أدراص » لا يزال — كما تركتُه — وحيدًا فى عُشِّه . فلْأَذهبْ إليه مع ابنتى « أمِّ راشِدٍ » . »

فودَّعَتْهما « أمُّ مازن » ، وأسرعتِ الفأرتان إلى عُشِّهما ، وحيَّتا صديقَتَهما ، وهما تتسلقان سنابلَ القمْحِ ، فى خِفَّةٍ ورشاقَةٍ .

واسْتَخْفَتْ « أمُّ مازن » بين سنابِلِ القمحِ . وظلتْ تواصِلُ سيرَها ، حتَّى وصلتْ إلى سهلٍ فسيحٍ . فلم تهتَدِ إلى سبيلها التى تسلُكُها إلى بيتها ، وأيقنَتْ أنها قد ضَلَّتِ الطريقَ . وحارتْ فى أمرِها ، فلم تَدْرِ : كيف تصنَعُ ؟

وإنها لتسيرُ مُعْتَسِفَةً (على غير هُدًى)، إِذْ أبصرتْ لِحُسْن حظِّها طريقَ النملِ. ولاحَ لها سَطْحُ بيتها العالى، فصاحت مبتهجةً مسرورةً :

« يا لَها من سعادَةٍ ! لقدِ اهْتَديتُ إلى وادِينا العامرِ . »

ولكنها شعرَتْ بألمِ الجوعِ، فآثرتْ أن تذهبَ إلى بقراتِها لتحلُبَها. وثَمَّةَ أسرعتْ إلى شجرةِ البُرْقُوقِ، حيث رأَت جمهرةً من رفيقاتِها : دائبةَ الحركةِ، موفورةَ النَّشاطِ، بين رائِحَةٍ وغادِيةٍ.

وما إِنْ أَبْصرَتْ إحدَى شقيقاتِها وهى تُدانيها، حتى ضربَتْ رأسَها بقَرْنَيْها — وهذه لغةُ الكلام عند النمل — ثم تبادلتا تحيَّةً مقتضَبةً، لأن النملَ دائبُ العَمَلِ، وهو مشغولٌ أبدًا، لا يَرضَى أن يُضِيعَ وقتًا فى ثَرْثَرةٍ لا طائلَ تحتَها.

فقالت لها أختُها :

« ها أنتِ ذى قادِمةٌ، يا « أمَّ مازن » . فمن أين أتيتِ ؟ »

فقالت لها « أمُّ مازن » ، وهى مُستَأْنِفَةٌ سيرَها :

« لقد جُلْت جَوْلةً قصيرةً ، فدهمَتْنى العاصفةُ . »

ثم قابَلتْها نملةٌ أُخرى ؛ فقالت لها : « سعِدَ يَوْمُك، يا « أمَّ مازن » . أذاهبةٌ أنت لِتحْلبى بقراتِنا ؟ سِيرى متيَقِّظَةً حَذِرةً ،فإن عصفورًا يَرقُبُكِ من أعْلَى شجرةِ البُرْقوقِ . فحذارِ أن تذهبى فريسةً له ! »

فقالت « أمُّ مازن»: « شكرًا لكِ — يا « أمَّ نَوْبَةَ » —على نصيحَتِك. وَداعًا يا عزيزتى ! »

ثم أبصرتْ مرْضِعَتَها « بنتَ الشَّيْصَبان »، فقالت لها ، مبتهجةً بلُقياها :

« حُيِّيتِ يا« بنتَ الشيصبان» ،وسعِد يومُك ! أقادمةٌ أنتِ من هذا الثَّقْبِ ؟ »

فأجابتْها بنتُ الشيصبان:«صدقتِ ،يا«أمَّ مازن»! آه،لو علمتِ —يا بُنَيَّتى— ما أصابنى اليومَ من ألمٍ وشقاءٍ؟ لقد فُقِئَت إحدى عُيونى ، منذ لحظةٍ، وقد أصبحتُ — لتعاسَتِى — لا أكاد أُبْصر شيئًا . »

فقالت « أمُّ مازن » : « مسكينةٌ أنت ، يا « بنتَ الشَّيْصبان » ، فالْبَثى قليلًا ، فإنى سأَصْحَبُك فى عودتِك إلى القرْية . »

٩ — فى برقوقةٍ

ثم أسرعت « أمُّ مازن » إلى غصنِ الشجرةِ . وزجَّتْ نفسَها بين أوراقها، باحثةً عن بقراتها ، فلم تجدْ — فى هذه المرَّة — برغوثًا تحتلبُه . ولكنَّها عثرت على برقوقةٍ كبيرةٍ ، ذهبيَّةِ اللون ، وكان بعضُ العصافير قد شقَّها .

فقالت « أمُّ مازن » تحدِّث نفسها :

« ما أحوجَنى إلى هذا الطعامِ . فَلْأتذوَّقه لأسُدَّ جوعى ! »

ولم تكد تلْعقُ عصيرها ، حتى قالت ، مبتهجةً بهذا الغذاء الفاخر الشهىِّ :

« ما ألذَّه طعامًا ، وأشهاه غذاءً ! لقد اهتديت إلى طعامٍ آخرَ ، غيرِ لبنِ البراغيثِ الصغيرةِ . » ثم لبثتْ « أمُّ مازن » على البرقوقةِ الشهيَّةِ زمنًا طويلاً ، وأنستْها حلاوتُها كلَّ شىءٍ ، وظلَّتْ تأكل منها فى شرهٍ عجيبٍ . وإنها لمُقبلة على امتصاصِها ، إذْ بالبرقوقةِ ترقصُ فى الفضاء ، ثم تترجَّح يُمْنَةً ويسرة !

وأحسَّت « أمُّ مازن » ذلك الخطرَ الداهمَ ، فتشبَّثتْ بها مستميتةً ، وأمسكتها بكلِّ ما أُوتيتْ من قوَّةٍ ، وهى لا تدرى : ماذا حدثَ ؟

ثم اهتزَّتِ البرقوقةُ هزَّةً أخرى ، فهوتْ إلى الأرضِ ، وأُغمِىَ على « أمِّ مازن » وهىَ جاثمةٌ فى وسطِ الثمرةِ .

١٠ — فى بيتِ « فاضلٍ »

ولعلَّكم تحبُّون أن تعرفوا - أيها الأطفالُ الأعزاءُ — السرَّ فيما حدث . وإنى قاصٌّ عليكم حقيقةَ الأمرِ :

لقد جاء « فاضلٌ » الصغيرُ — وهو غلامٌ فى العاشرةِ من عمرِه تقريبًا — وظلَّ يهزُّ شجرةَ البرقوق ، ليملأ سلَّته بذلك الثمرِ الشهىِّ ، ليُعِدَّ منها فطائرَ لذيذةً . وكانت برقوقةُ « أمِّ مازن » أولَ ما سقط من الشجرةِ .

وما زال « فاضلٌ » يهزُّ شجرةَ البرقوقِ ، ويضعُ فى سلَّتِه ما يسقُطُ منها ، حتى امتلأتْ ، فعاد بها إلى بيتِه .

أراكم تتساءلون عن مصيرِ « أمِّ مازن » ، لتتعرَّفوا : ماذا أصابها؟ أكان نصيبها الهلاكُ أم النجاةُ ؟

فاعلموا — أيها الأصدقاء الأعزَّاء — علمتمُ الخيرَ ، وأُلهمتمُ الرشدَ والسدادَ — أنَّ « أمَّ مازن » لم تمتْ ، وإنَّما أُغمِىَ عليها ، من فرطِ الألمِ ، ولبثتْ وقتًا طويلًا ، لا تُبدى حراكًا . ولمَّا استيقظتْ وجدت نفسها . . . يا للعجب ! أتعرفون : أين وجدت نفسها ؟

لقد دهشت « أمُّ مازن » — كما تدهشون — حين رأتْ أنها فى وسطِ فطيرةٍ ، كبيرة ، مصنوعةٍ من البرقوق .

وقفزَ « فاضلٌ » الصغيرُ فرحاً مسروراً بتلك الفَطيرةِ البُرقوقيَّة الجَميلةِ .

وقال لأُمِّه : « ما أجملَ فطيرتَكِ ، يا أُمِّى العزيزةَ !

سأعطِى « لَيلَى » الصغيرةَ نِصْفَ نصيبِى منها ، لأنها مريضةٌ ، وأنا أُحِبُّ أَن أُدخِلَ السُّرورَ على قلبِها . فهل تُقرِّينَنِى على ذٰلكِ ؟

إن الفُرْنَ مُوقَدَةٌ ، فلْنضعْ فيها الفطيرةَ ، لِتُنْضِجَها النارُ الحاميةُ بعدقليل . »

فارتجفت « أمُّ مازن » ، وقالت تُحدِّثُ نفسَها : « آه ! لقد حان حَيْنى ، بلا رَيْب . ولو تهاونْتُ قليلًا لقتلَتْنى نارُ الفُرْنِ الحاميةُ . فلأَنْجُوَنَّ بنفسى ، قبل أن أَستهدِفَ لهٰذا الْخطر الداهِمِ المُميتِ ! »

والْتفتَ « فاضلٌ » إلى أُمِّه بَغْتَةً ، وقال لها :

« يا للعجَب ! أَلا تُبْصِرين هٰذه النملةَ ، يا أمَّاه ؟ إنها تتنزَّه على فطيرتِنا . فيالها من نملةٍ جميلةِ الشكلِ ، ظريفةِ المَنْظَر . . لابُدَّ من إخراجِها ! »

فصاحت به « أمُّ مازن » ، وقد خَشِيتْ عاقبةَ هٰذا العمل :

« حَذارِ أن تَفعلَ ذٰلك ، يا « فاضلُ » . اترُكْنى — بربِّك — أَذْهبْ إلى حيثُ أَشاءُ . »

ولكنَّ « فاضلًا » لم يفهَمْ شيئًا مما تقولُ ، لأنَّهُ لايعرفُ لغةَ النملِ .

وثَمَّةَ أمسك « أمَّ مازن » ، وقَبَض عليها بإِصْبَعَيْه فتوجَّعَتْ ، وأَنَّتْ من فَرْطِ الألمِ ، وقالت له ضارِعَةً متوسِّلةً : « شدَّ ما آلمَتْنى قبضةُ أصابعِك ، أيُّها القاسى ! فدَعْنى ، وإلَّا اضطُرِرْتُ إلى قَرْصِكَ . »

ولم يفهمْ « فاضلٌ » شيئًا من وَعيدها ، ولٰكنَّه وَضَعَها فى راحةِ يدِه مترفِّقًا . ثم نادَتْه أُمُّه ، فوضعَ « أمَّ مازن » على المائدةِ ، وَخَفَّ إلى أمِّهِ مسرعًا .

١١ — فصلٌ من كتابٍ

ورأت « أمُّ مازن » أمامها فرصةً سانحةً للهَرَبِ ، فنزلتْ مُسرِعَةً من المائدةِ ، واختبأَتْ فى صُندوقِ القُمامَةِ (الكُناسَةِ) ، بين فُتاتِ الْخبزِ ، وأخلاطِ الطعامِ . وأصبحتْ — حينئذ — آمِنَةً من الأخطارِ . وامتلأَتْ نفسُها غِبطَةً وسرورًا ، حين رأتْ « فاضلًا » يعودُ للبحث عنها ، وفى يدِه مصباحٌ . وأَبصرتْه وهو يُفتِّشُ عنها فى أَرجاءِ المَطبخِ كلِّه ، على غير طائلٍ . »

وجاء « أبو فاضلٍ » فسأل ولدَه : « ماذا تصنعُ ؟ »

فحدَّثه بقصةِ النَّملةِ والبُرقوقةِ . فانتهز « أبو فاضل » تلك الفرصةَ السانحةَ ، وظلَّ يحدِّثُ ولدَه عن خصائصِ النمل ، ومزاياه ، ونشاطِه النادرِ ، وَحِيَلِهِ العجيبة . فدَهِش « فاضلٌ » ، وأُعْجِبَ بما سمع ، وقال لأبيه :

« لعلَّ هٰذا أعجبُ درسٍ سمعْتُه فى حياتى ! »

ورأى الوالدُ أن ابنَهُ لا يزال فى حاجةٍ إلى سماعِ المَزيدِ ، فقال له : « ما دُمتَ تطلبُ المَزيدَ ، فاذهبْ إلى هٰذا القِمَطْرِ ، وأَحْضِر السِّفْرَ العاشرَ من كتابِ « نِهايَةِ الأرَبِ » ، لِأقرأَ عَلَيْكَ نُبْذَةً شائقةً مِمَّا كَتَبَهُ مُؤَلِّفُه عن النملِ . »

فأسرع « فاضلٌ » إلى القِمَطْرِ ، وأحضرَ السِّفْرَ العاشرَ من « نِهايةِ الأرَبِ » . فقرأ عليه أبوهُ القطعةَ التى اختارها له ، من ذٰلك السِّفْرِ النفيسِ . وإلَيْكَ ما اختاره :

« . . . والنَّمْلُ من الحَيوانِ المُحْتالِ فى طلب المعاشِ . يتفرَّقُ لذٰلك ، فإذا وَجَدَ شيئاً أَنْذَرَ الباقِينَ ، فيأتِينَ إلَيْه ، ويأخُذْنَ مِنْه . وكُلُّ واحدٍ مُجْتهِدٌ فى إصْلاحِ شأنِ العامَّةِ ، غيرُ مُخْتَلسٍ لشىء من الرِّزْقِ دُون صَحْبِهِ .

وَمن تَحيُّلِه فى طَلَبِ الرِّزْقِ : أَنَّهُ رُبَّما وُضِعَ بَيْنَهُ وبينَ ما يُخافُ عليه مِنْهُ ما يَمْنَعُه من الوُصول إليه من ماءٍ أو شَعَر ، فيتسلق فى الحائط ، ويَمْشى على جِذْعٍ من السقف ، حتى يُسامِتَ (يُقابلَ ويُوازِىَ) ما حُفِظَ منه ، ثم يُلْقِى نفسه عليه . وفى طبْعِه وعادَتِه أن يَحْتَكِرَ (يَجمعَ ويَحْتَبِسَ) — فى زمن الصيف — لزمن الشتاء . وهو إذا خاف — على ما يَدَّخِرُهُ من الحُبوبِ — العَفَنَ ، والسُّوسَ ، أو التَّنَدِّىَ من مُجاوَرةِ بَطْنِ الأرْضِ : أخرجها إلى ظاهر

الأرض ، حتَّى تيْبَسَ ، ثمَّ يُعيدَها . وإنْ خاف على الحَبِّ أنْ يَنْبُتَ من نَداوَةِ الأرض ، نَقَر فى موضع القِطْمِيرِ من وَسَطِ الحَبَّةِ (وهو المَوضع الذى يبتدئ منه النبات) ، ويَفْلُقُ جميعَ الحَبِّ أَنْصافاً . فإن كان من حَبِّ الكُزْبَرَةِ فلَقَه أرْباعاً ، لِأَنَّ أنصاف حَبِّ الكُزْبَرةِ تنْبتُ .

فالنَّمْلُ — من هذا الوَجْهِ — فى غاية الحَزْمِ ، فَسُبْحانَ المُلْهِمِ ، لا إله غيْرُهُ .

وليس شَىْءٌ — من الحيوان — يَقْوَى عَلَى حَمْلِ ما يكونُ ضِعْفَ وَزْنِهِ مِرارًا : غير النَّملةِ . والنَّمْلُ يَشَمُّ ما لَيْسَ له رِيحٌ ، مِمَّا لو وَضعهُ الإنسانُ عِنْدَ أنفِهِ ، لما وَجد له ريحاً .

ومن أسباب هلاك النَّملة ، نباتُ الأجنحة لها . فإذا صار النَّمل كذلك ، صادته العصافير ، وأكلته .

وفى ذٰلك يقول أبو العتاهية :

« وإذا استوَتْ للنَّمل أجنحةٌ حتى يَطيرَ ، فقد دنا عطَبُهُ »

. . .

ولَمَّا انتهى « أبو فاضلٍ » من قراءة هذا الفصلِ المُعْجِبِ النَّفيس ، امتلأَتْ نفسُ « فاضلٍ » فرَحاً بما أدرك من حقائقَ . وكان لهذا الدرس أبلغُ الأثرِ فى نفسه .

١٢ – فى غُرفةِ المائدةِ

ونعودُ إلى صاحبتِنا « أُمِّ مازن » التى لَبِثَتْ فى مكانها مُختَبِئةً ، لا تُبْدِى أقل حِراكٍ ، لِنرَى : ماذا فعلَتْ ؟

لقد جَهَدها ما لقِيَتْ من إرْهاقٍ وإعناتٍ ، فاستسلمتْ للنومِ العميق ، وظلَّتْ تَحْلُمُ بالبراغيث الشَّهِيَّةِ مرَّةً ، وبفطيرةِ البُرقوقِ مرَّةً أخرى .

ولَمَّا استيقظتْ من سُباتها ، رأتْ أهلَ البيتِ قدْ ناموا جميعاً ، وساد الصمتُ والسُّكونُ ، وانطفأتِ الأضواءُ ، فلم يبق منها إلّا بَصيصٌ ضئيلٌ ، كان يرسِلهُ القمرُ فى زاوية من زوايا المَطْبخِ .

فتشجَّعَتْ « أُمُّ مازن » وخرجت من مَخبئِها ، باحثةً — فى جميع الأرجاء — عن ثَقْبٍ تَنفُذُ منه إلى خارج البيتِ . وما زالت تسيرُ ، حتَّى وصلتْ إلى حجرَةِ المائدةِ ، وهى حجرَةٌ فسيحةٌ مُنسَّقةٌ أجملَ تنسيق . ثم وقفت واجمةً قَلِقَة ، لأنها سَمِعَتْ جَمْجمةً خَفيَّةً بالقرْبِ منها .

وظلتْ تُنْصِتُ ، لتتثبَّتَ مِمَّا سَمِعتْه ، فطَرَقَ سمعَها صوتٌ ضئيل . فهمسَتْ « أُمُّ مازنٍ » قائلةً : « تُرى : من الطارقُ ؟ »

فسمِعَتِ الصوْتَ واضحاً : تِكْ ، تِكْ ؛ ثم ارتفع الصوْتُ صائحاً فى هذه المرة : رن ... رن ... رن ... ! إيذاناً بأن الساعة الثالثةُ الآن .

فاشتدَّ رُعْبُ « أُمِّ مازن » ، وهرَبتْ مسرعةً ، وهى لا تعرفُ : إلى أين تقصِدُ ؟ ولا تهتدى إلى مَخْرَجٍ لها من ذلك المَكانِ المُوحِشِ المُخيفِ ، وكان الظلامُ حالِكًا ، والسكونُ يسودُ أهلَ البيتِ .

وانْسَلَّتْ « أمُّ مازن » الصغيرةُ من تَحْتِ الباب ، باحثةً عن مَنْفَذٍ تَخْرُجُ منه ، فإذا بها قد عادتْ من حيث أتتْ . ورجَعَتْ إلى المَطْبخِ الذى كانت فيه .

١٣ — فى المَطبخِ

ولم يَكد يَقِرُّ قرارُها فى المَطبخ ، حتى أبصرتْ دابَّةً تقرِضُ تحت خِوانٍ ، وهى جادَّةٌ فى عملِها ، فقالتْ « أمُّ مازنٍ » :

« ما أَشْبَهَ هذه الدابةَ بأُمِّ راشد وأُمِّ أدْرَاصٍ ! وإنْ كانت أضخمَ منهما . عَلَى أنَّ أنفها المُحَدَّدَ يُماثِلُ أَنفَيْهما ، ولا يفترقُ عنهما فى شىءٍ . ولستُ أشُكُّ فى أن هذه الدابَّةَ ليستْ إلَّا فأرةً ، فلا أُضيِّعَنَّ الفُرْصَةَ . ولا بُدَّ من سؤالِها ، لعلَّها ترشِدُنى إلى وسيلَةٍ للخروجِ من هذه الدارِ .

ثم أسرعتْ « أُمُّ مازن » إلى الدابَّةِ السمراءِ . ولكنها رأتْ عينَين كبيرتين خضراوين تقدَحانِ نارًا ، فلم تدرِ : أَىُّ عيْنينِ هاتانِ ؟

وأرهفتْ سَمْعَها ، فلم تسمع إلَّا صوتَ الفأرة الصغيرةِ ، وهى تقرِضُ بأسنانِها . فاستأنفتْ « أمُّ مازن » سيرَها ، وهى تقول فى نفسِها :

« لقد كنتُ واهمةً — بلا ريب — فيما حسِبْتُه . فقد خُيِّلَ إلَىَّ أنى أرى عينين كبيرتين تقدحان نارًا ، فلما أنعمتُ النظرَ ، لم أعثُرْ لهما عَلَى أثرٍ. ولعل سببَ هذا الوهمِ عائدٌ إلى ضعفِ أعصابى ، التى أضناها ما بذلتُه من الجهدِ ، وكابَدْتُه من العَناء ، فى اليومِ السابق . »

ثم تقدَّمتْ إلى الفأرةِ ، قائلةً : « سُعِدَ ليْلُكِ ، يا سيِّدتى الفأرةَ ! »

فقالتْ لها الفأرةُ مُسْتعجبَةً : « سُعِدْتِ وسَلِمْتِ ، يا عَزيزَتى ... آه ... إنكِ نملةٌ صغيرةٌ .. فأىُّ حادث أتى بك إلى هذا البيتِ ، الآهلِ بساكنيه ؟ لقد غرَّرْتِ بنفسِك (عرَّضْتِها للهلاك) . فإنكِ مستهدفةٌ للأخطارِ ، إذا أصررتِ على البقاء فى هذه الدارِ وما أيسرَ عَلَى أىٍّ كان أن يسحَقَك بقدَمِه ، عن قصْدٍ ، أو عن غير قصْدٍ . فارْجعى إلى واديكِ ، إن أردتِ السلامةَ . فما أظُنُّكِ قَدِمْتِ إلى هُنا — أيتها الشَّرِهَةُ الصغيرةُ — إلَّا رَغْبَةً فى أن تأكُلى من السُّكَّرِ ، وألْوانِ الْحلوَى ، والفطائرِ اللذيذةِ ... إنى جِدُّ عارفة بما تُؤْثرينه من لذائذِ الأطعمةِ ! »

فقالتْ « أمُّ مازن » : « كلَّا ، يا سيدتى الفأرةَ ، ما جئتُ هنا مُخْتارةً ، بل ساقتنِى المَقاديرُ مُرغَمةً إلى هذا السجنِ . وقد بذلتُ جُهدى ، متلمِّسَةً منفذًا للخروجِ من هذه الدارِ ، فلم أُوَفَّقْ فى سعيي إلى الآن .

ولكن خبِّرينى — متفضِّلةً — بكُنْيَتِكِ ، لأكرِّمَكِ بها إذا ناديْتُكِ . »

فقالت لها الفأرةُ : « كنيتى — أيتها العزيزةُ — هى أمُّ دِرْصٍ . »

ولم تكد « أمُّ دِرْصٍ » تُتِمُّ هذه الجُملةَ ، حتى سَمِعتْ حركةً تنبعثُ من رُكنٍ مظلمٍ . فرفعت « أُم دِرْص » أطراف أنفها ، وأُذُنَيْها ، مُرْتاعةً ؛ ثم سُرِّىَ عنها حينَ تلفَّتَتْ فلم تَجِدْ شيئًا فى الحُجرةِ . فقالت ساخرة :

« ما أشدَّ غَبائى وجُبْنى ! فإنى دائمةُ الْخَوْفِ من القِطِّ ، لأن أُمى طالما حذَّرَتْنا منه ، وأوهمَتْنا أن خَطرَهُ لا يُدْفَعُ ، وأن بأسَه مَرْهوبٌ .

وقد طالما حدَّثَتْنا أحاديثَ مُفَزِّعة عن القِطَطِ ، ومصايدِ الفأر . وقد حظَرَتْ علينا الدخولَ فى هذا المَطبخِ الحَافلِ بأشهى الأطعمةِ ...

ولكنَّنى لَنْ أعبَأَ بنصيحَتِها — فى هذه المرَّةِ — فقد أيقنتُ أنها تُغالى فى الْخَوفِ والفزعِ ، مِمَّا لا يُخيف ولا يُفزِعُ ...

ألا ترَيْن هذا البابَ أيتها النملةُ الصغيرةُ ؟ إن خلفَه من نفائس الأطعمَةِ ، ولذائذِ المآكلِ المُرْتَقيات ، ما يُنْسِى الْجبانَ جُبْنَهُ ، ويجعلُهُ شجاعًا جريئًا يستهينُ بالأخطارِ ، ولا يُبالى بالعواقب ...

إن فيه كثيرًا من ألوانِ الخُبْزِ ، والأرْز ، والجُبْنِ اللذيذِ ، وما إلى ذٰلكِ من أَصناف الطعامِ ...

ألا تَشَمِّينَ هٰذه الرائحةَ الطَّيِّبةَ ؟ لقد طالما نَعِمْتُ باقتحام هذا البابِ ، وأكلتُ ما شئتُ من هٰذه اللَّذائذِ ... ثم عدتُ إلى أهلى راضيةً مسرورةً ... فإن أسرتى تقطنُ مستودَعَ القمحِ القريبَ من هٰذه الحُجْرَةِ حيثُ تُخفِى زادَنا منَ الجَوْزِ ، و... »

وهنا وقفتْ « أُمُّ دِرْصٍ » عن الكلام ، فقد سمعتِ الحركةَ تنبعثُ من الركنِ المظلمِ ، مرة أُخرى . والتفتتْ « أُمُّ مازن » فرأتِ العينيْن البراقتيْن الكبيرتين تقدَحان بالشرَر .

وكانتِ القطَّةُ — فى هٰذه المرَّة — قريبةً منها ، فارتجفَتْ « أُمُّ مازن » . ولم تكنْ قد رأتِ القطَّ قبل هٰذه المرةِ ، ولم تستَبِنْ — من خلالِ الظلامِ — إلَّا عينيْه . فقالت مذعورةً :

« الزَمى الصمتَ ، يا « أُمَّ درصٍ » . فإنى أتوجَّسُ شرًّا ، وقد خُيِّلَ إلىَّ أننى أرى شيئًا مُختَبئًا فى بعض الزوايا . »

١٤ — غُرُور الفأرةِ

فقالت « أُمُّ درص » هازئَة :

« ها ! ها ! ها ! يا لَكِ من رِعْديدةٍ خائرةِ العزم ! على أن مَجالَ العذرِ أمامَك فسيحٌ ، لأنك حشرةٌ ضعيفةُ الحَوْلِ والطَّوْلِ . . . أما أنا فلستُ جديرةً أن أخشى كائنًا كان . . . إننى لا أُبالى بالناسِ ، ولا بمصايدِ الفأر ، ولا بالقِطاطِ ، لأننى عاقلةٌ رشيدةٌ ، وإن كانت أُمى تأْبَى إلا أن تعامِلَنى كما تُعامِلُ طفلة صغيرةً . ولَها العُذْرُ فإن حبَّ الأمهاتِ كثيرًا ما يدفعُهُنَّ إلى تخويفِ بناتِهِنَّ من كلِّ شىءٍ . . . إننى جريئةُ القلبِ ، يا « أُمَّ مازنٍ » ، وقد كنت أقرض الأرزَ أمس — فى هذا المكان — فى وَضحِ النهار ، أمام ربَّةِ الدار ، وعلى مرأَى منها . . . وقد شَعرتُ — أولَ الأمر — بشىء منَ الخَوْفِ ، ثم عاودَتْنِىَ الشجاعَةُ ... ولعلك لا تعرفين : ماذا فعلتُ ؟ »

فقالت لها « أُمُّ مازن » : « كلا ، لا أعرِفُ شيئًا ! »

فقالت « أُمُّ دِرْصٍ » : « إنها لم تَكَد تفتَحُ هذه الغِرارَةَ (الزَّكيبةَ) التى أمامنا ، حتى قفزتُ فى وجهها . فاشتدَّ خوفُها ولاذتْ بالفِرارِ ، وصاحتْ تطلُبُ النجدةَ . وسألجأُ إلى هذه الطريقةِ متَى رأيتُ قِطًّا ! »

١٥ — نشيد الفأرة

وما زالت « أمُّ درْصٍ » سابحةً فى أحلامِها ، متظاهرةً بالْجُرْأَةِ ، مُستهينةً بالأخطار ، غيرَ مقدِّرَةٍ للعواقبِ حساباً . ثم ختمتْ غُرورَها ، متغنيةً بالأُنشودةِ التاليةِ :

حدَّثتْ أمى ، وما أعْ   جبَ ما قالتْهُ أمى !
« حدَّثتنــا بِحَديثٍ   كان وَهْماً: أىَّ وَهْمِ !

• • •

حَدَّثتْنا أنَّ بأسَ الـ   قِطِّ : مرهوبٌ ، مُخيفُ
وهو — فى رأيِى — جبانٌ   خائرُ العزمِ ، ضَعيفُ

• • •

إنْ رأى — مِثْلِىَ — سَـ   بَّاقاً ، توانَى عن لَحاقِهْ
أينَ بأسُ القطِّ من بأ   سِى ؟ وسَبْقِى مِنْ سِباقِهْ ؟!

• • •

أبلِغوا القِطَّةَ عنِّى :   « أننى أشجعُ منها
لستُ أخشاها ، ولا أفْ   زَعُ إن حُدِّثتُ عنها ! »

• • •

ليتها تَبْدُو أمامى   لِترى عَزْمى ، وبأسى
عَلَّنى أُلقِى عليهـــا   — إن أتتْ — أبلغَ درسِ

• • •

علَّهـا تُؤمِنُ أن الـ   فأْرَ لا تَرضَى الفِرارا
وترى أنى عنيـدٌ   — فى صِراعى — لا أُبارَى

• • •

وترى منا — إذا ثُرْ   نا — أشِـدَّاءَ كِرامَا
لا يُبالون — إذا ما   غَضِبوا — الموتَ الزُّؤاما !»

٦١ — نشيد القِطِّ

وما كادتْ « أمُّ دِرْصٍ » تُتِمُّ آخرَ كلمةٍ فى هذا النشيدِ ، حتى امتلأَ قلبُها ذُعْراً . فوقفتِ المِسْكينةُ عنِ الكلامِ ، وقفَّ شعرُها من فَرْطِ الرُّعبِ ، وجَحظَتْ عيناها ، وصاحتْ ، وهى ترتَجِفُ :

« رَبَّاه ! ماذا أرى ؟

أدركِينى يا أماه ! إنَّه القِطُّ . فما حيلتى فى دفعِه ؟ »

وأقبلَ عَلَيْها القِطُّ يُطاردها ، وَيُنشِدُ تائِهًا مَزْهُوًّا :

« أيُّها المَغرورُ : أهْلًا بِكَ إذْ جئتَ — وسهْلَا
قد تَمَنَّيْتَ لِقائِي ضَلَّةً منك ، وجهْلا

• • •

أنتَ لِي أفْخَرُ زادٍ أنت لى أشْهَى طعامْ
فَتأَهَّبْ لِلقــائِى واغْنَمِ المَوْتَ الزُّؤامْ . »

وظلَّتْ « أمُّ درصٍ » تجرى فى أرجاء المَطبخ ، على غير هُدًى ، والقِطُّ يطاردُها ويَسُدُّ عليها منافذَ الهرَبِ ؛ وهى تَغُوث ، طالبةً النجدةَ ، فلا يُغيثُها أحدٌ .

وكانت « أمُّ درصٍ » خفيفة الحَركةِ ، سريعةَ القفزِ ، فأسرعت إلى جُحْرِها ، حتى إذا دانَتْه ، ولم يَبْقَ على بلوغِهِ إلا قفزَتان ، أدركَ « أبوخَداشٍ » غرَضَها ، فوَثَب عليها وثبةً واحدة ، فإذا هىَ بين مخالبه .

وهكذا حالَ دونَ ما تريد ، وبدَّلَ أملَها يأسًا ، وأصبحت بين براثِنِ المَوتِ ، بعد أن كانت أقربَ ما تكونُ إلى النجاةِ ؛ فلم تَرَ بدًّا من مُعاودةِ النِّضال .

١٧ — عاقبة الغُرورِ

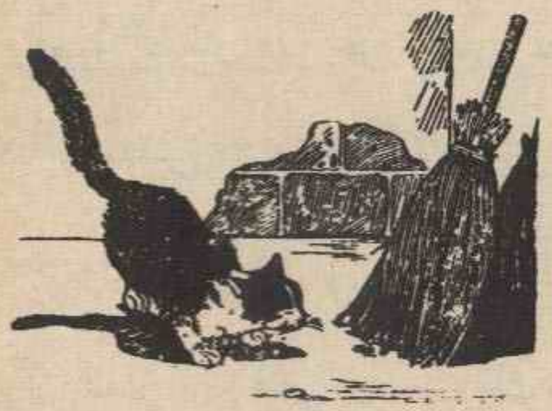

فانسلَّت من بين أرجلِ عدُوِّها اللَّدودِ ، وأسرعَتْ تجرى بكلِّ سرعَتِها، حتى وجدتْ مِكْنَسةً فى زاويةِ المَطبخِ ، فاختبأتْ خلفَها ، وهى تعلِّلُ نفسَها بكاذباتِ الأمانىِّ ، وتظنُّ أن « أبا خَداشٍ » لن يراها . وتقولُ لنفسها نادمةً محزونةً :

« ليتنى أصغيتُ إلى نُصْحِكِ يا أُمَّاه ! إذَنْ لَنجوتُ من الخَطرِ الداهمِ ، ولَكنَّ غرورى أوردَنى مواردَ الهلاكِ . . . ولئن نجوتُ فى هذه المَرةِ ، لم أُخالِفْ لكِ قولًا بعد اليومِ ! »

ولَكنَّ آمالَ « أمِّ درص » تبددتْ ، وذهبتْ أدراجَ الرِّياحِ ، فقد ربَضَ « أبو خداش » أمام المِكنَسَةِ ، وظلَّ يترقَّبُ فريسته ، بفارغِ الصبرِ ، وهو يتحفَّزُ للفتك بها ، والانقضاضِ عليها ، وقد سال لُعابُه شوقًا إلى ازدرادِها . وظلَّ يُمِرُّ لسانَه على شفتَيْه مرارًا ،

وهو فرحانُ بهذا الفَطُورِ الشَّهِيِّ الوشيكِ !

وما كادت « أمُّ درصٍ » تُطِلُّ برأسها الصغيرِ ، حتى انقضَّ عليها « أبو خداش » ، وأمسكَ بها بين مِخْلَبَيْهِ ، فقالت له ضارعةً :

« اصفح عنى — فى هذه المَرة — يا أبا خَداش! وإنِّى مُعاهدتُكَ على تركِ الدار . . . اغفرْ لى — بربِّكَ — هذه الزلَّةَ ؛ فلن أعودَ إلى اقترافِها بعد اليومِ . »

ولكن « أبا خداش » لم يُصْغِ إلى شىءٍ مما تقولُ ، وأمسك بها بين بَراثنِه .

ولم تُطِقْ « أم مازن » أن ترى مصرعَ صديقتها التاعسة المِسْكينة : « أمِّ دِرص » ، التى عوقبتْ على غرورِها وبلاهَتِها أشنعَ عقابٍ ، فاختبأتْ « أم مازنٍ » حتى غابَ « أبو خَداش » ، ومعه فريستُه ، التى خالفتْ نُصحَ أمِّها فلقِيَتْ حَتْفَها جزاءً وفاقًا !

١٨ — بين « فاضِلٍ » و« كَوْثَرَ »

ولَمَّا أَصْبَحتْ « أُمُّ مازن » ، ونَفَذَ — إلى المَطبخِ — أَوَّلُ شُعاعٍ من أَشعَّةِ الشمسِ الوضَّاءةِ ، أقبلتْ « أمُّ مازن » على المَائدةِ ، تلتَهِمُ سُكَّرًا مسحوقًا . وظلَّتْ تأكُلُهُ فى شَرَهٍ عجيبٍ ، شأنُ بناتِ جنسِها جميعًا .

وإنها لتَلتهِمُ السكَّرَ التهامًا ، إذ سمعَتْ صوتَ خُطُواتٍ ثقيلةٍ ، تَدِبُّ فى المَمْشَى ، ورأت « كَوْثَرَ » قادمةً على المَطبخِ .

فقالت « أمُّ مازنٍ » فى نفسِها :

« لقد حان وقتُ الهَربِ ، حتى لا تَرانى هذه الفتاةُ ، فتُهْلِكَنى . »

ورأت « أمُّ مازن » أمامها ذُبابةً تطيرُ ، صَوْب نافذةٍ مفتوحةٍ ، ثم تخرجُ منها . فاعتزمت أن تخرُجَ من ذلك المنفَذِ ، وأسرعت تَعْدُو (تَجْرِى) إلى النافذةِ المفتوحةِ ، وهى حريصةٌ على أن تَسْتَخفِىَ عن عينىْ « كَوْثَرَ » التى كانت مشغولةً بإعدادِ الفطورِ . . . وما زالت « أمُّ مازن » تَجِدُّ فى سيرها — بعزمِ نَمْلةٍ — حتى وصلتْ إلى النافذة .

ولكنها لم تَكَدْ تبلغُ حافتَها ، حتى هالَها ما رأتْ ، فقد أبصرت هاويةً بعيدةَ الغوْرِ (شَدِيدةَ العُمْقِ) ، بين النافذةِ والأرض .

فحارتْ فى أمرِها ، ولم تَدْرِ : كيف تصنَعُ ؟

وتراجعتْ — من فَوْرها — خائفةً مذعورةً ، حتى لا تتردَّى (لا تَسقُطَ) فى تلك الهاويةِ السَّحيقةِ .

وإنها لتَهُمُّ بالعودةِ — من حيثُ أتتْ — إذْ طرَق سَمْعَها صوتُ «فاضلٍ» وهو يُنادِى أختَه « كوثرَ » :

« هل أعددتِ فَطورى ، أيتها الشقيقةُ العزيزةُ ؟ »

فقالت له « كوثرُ » باسِمَةً : « لقد أوشكتُ أن أنتهىَ منه . »

فصاح « فاضلٌ » مسرورًا : « انظرى إلى هذه النملةِ الصغيرةِ ، التى تسيرُ حائرةً على حافةِ النافذةِ . لقد بحثتُ عنها أمسِ ، فلم أفُزْ بطائلٍ من بحثى ، وها ، قد عثرتُ عليها الآن ! »

فقالت له « كوثرُ » :

« دَعْها — يا عزيزى — آمنةً وادِعَةً ، ولا تُزْعِجْها . »

فقال لها « فاضلٌ » : « كلا ، لن أصيبَها بسوء . ولكنِّى حريصٌ على درْسِ دقائقِ تركيبها العجيبِ . »

١٩ — فى الهواءِ الطَّلْقِ

ولكنَّ « أمَّ مازن » كانت تُؤْثِرُ (تُفَضِّل) أن تموتَ على أن يَقبِضَ عليها أحدٌ . فأسرعت إلى حافةِ النافِذَةِ . واعتزمتْ أن تَهْبطَ إلى الأرض ،

كَبَّدَها ذلك ما كبَّدَها من عناءٍ ومخاطرةٍ ! فتقدَّمتْ إلى الحائطِ فى صبرٍ وثباتٍ ، وأنشبَتْ أرجُلَها متشبِّثةً به . ولكنها لم تكدْ تَخْطُو خُطُواتٍ ثلاثًا ، حتى انقلبَ رأسُها إلى أسفلَ ، واختلّ توازُنُها ، فهوَتْ مِنِ ارتفاعِ طابقٍ كامِلٍ . وقد كان هذا الارتفاعُ كافيًا لقتلِ مَنْ هُوَ أقوى منَ النملةِ ؛ ولكنها نجَتْ منَ الخطرِ — لِحُسْنِ حظها — فقدِ اعترضَتْها ورقةُ كَرْمٍ ، فحمَتْها من أن تُصابَ بسوءٍ .

وانطلقت « أمُّ مازن » تجِدُّ فى طريقِها ، إلى بيتِها ، وقد أصبحتْ آمنةً فى الهواءِ الطَّلْقِ . . وما زالت جادَّةً فى السيرِ حتى اقتربتْ من البيتِ .

٢٠ — فى وادى النملِ

ولم تكدْ تدنُو من وادى النملِ ، حتى رأت ما أدهَشَها وهالَها ، وحزَنها وأقلقَ بالَها .

تُرَى : ماذا حدثَ ؟ وأىُّ خَطْبٍ ألمَّ بعشيرَتِها ، وحلَّ بقومِها ؟

لقد أبصرَتْ طوائفَ النملِ خارجَةً أسرابًا أسرابًا ، ضاربةً فى فِجاجِ الأرضِ (طُرُقِها) ، على غيرِ هدًى .

فقالت « أمُّ مازن » تُحَدِّثُ نفسَها مدهوشةً :

« هذا أعجبُ ما رأيتُ فى حياتى ! وما أدرى: لِمَ خرجتْ عشيرتى كلُّها مِنْ دُورِها ! أتُراهُنَّ قد خرجْنَ ليقابِلْنَنى ؟ ما أظنُّ ذلك ! »

ثم أبْصرتْ « أمُّ مازن » صاحبَتَها « بنت الشيصبان » قادمةً ، وقد بدتْ عليها أماراتُ الِارتباكِ والْحَيْرَةِ وكأنَّما هى هاربَةٌ ، وقد حمَلَتْ طفلاً صغيرًا.

فصاحتْ بها « أم مازن » قائلةً :

« سَعِدَ يومُكِ ، يا « بنتَ الشيصبان » . هأنا ذِى رَبِيبَتُكِ : « أمُّ مازن » . ألا تعرفيننى ؟ ما بالكِ خائِفةً وَجِلَةً ؟ »

فقالت لها « بنتُ الشَّيْصبان » : « آهٍ لنا ، ياحبيبتى ! وَواهِ من تلك النكبةِ التى ألَمَّتْ بنا ، أيَّتها العزيزةُ ! »

فصاحتْ « أمُّ مازنٍ » مُرْتاعةً : « أىَّ نكبةٍ تعنِينَ ؟ »

فأجابتها « بنتُ الشيصبان» :

« لقد هاجمتْنا جيُوشٌ كثيفةٌ من النِّمالِ الشُّقْرِ الخبيثةِ ، وشنَّتْ علينا غارةً شعواءَ . ولعلَّكِ تعرفين أن أولئكِ الشقراواتِ طالما خطِفنَ بناتِنا ، وفَجَعْنَنا فى حبيباتِنا .

ولقد كاثَرْنَنا بعَدَدِهِنَّ ، وملأنَ السهلَ ، وملَكْنَ علينا فِجاجَ الأرضِ كلَّها. آه ! ألا تسمعينَ ؟ وَداعًا ، يا « أمَّ مازن » . فإنى هاربَةٌ ، حتى لا أقَعَ فريسةً لأولئكِ الْخبيثاتِ . »

٢١ — غزْوَةُ النَّمل

ولقد صدقتْ « بنتُ الشيصبان » فيما قالتْه ، فإن جيوشَ الشقروات — من نِمالِ الأعداء — كانتْ تتقدَّم إلى وادى النَّمْل ، زاحِفةً تحاولُ أن تكتَسِحَ الوادِىَ . وقد رتَّبتْ خُطَّةَ الهجُومِ والغزْوِ ، وسارت متقدِّمةً ،

فى صفوف مُتراصَّة . وكان القادةُ فى مقدِّمة الجيْش، مُستبسلين فى الحَرْب ، وقد رفعوا قرُونَهم مُهيبين (صائحين) بجنودهم : أَنْ تَقدَّموا إلى الأمام ، إلى الأمام دائمًا !

وكانت الشقراواتُ الكبيراتُ آيةً من آياتِ القسْوَة ،فلم ترْحمْ صغيرًا، ولم توقِّرْ كبيرًا . واضطربتْ أسرابُ النِّمالِ السُّودِ الصغيرةِ ، وتفرَّق حُرَّاسُها أشْتاتًا ، يُغوِّثون ويستَنْجدون . وخرجتْ جماهيرُ النملِ الأسودِ ، لِصَدِّ غارةِ الأعداء ، وقد آلَيْنَ على أنفسهن أن يمْنَعنَ واديَهُنَّ ، ويَحْمِين وطنَهُنَّ ، ويذُدْنَ عن ذراريهِنَّ (نَسْلِهِنَّ) ، باذِلاتٍ أرواحَهُنَّ رخيصةً فى سبيلِ حمايةِ الأهل والوطَنِ !

واندفَعْنَ — فى شجاعَةٍ و إقدامٍ لا مَثيلَ لهما — يحارِبْنَ العَدُوَّ ، و يُجلِينَ المُغيراتِ ، وقد بذَلن كلَّ ما وسِعَتْه جهودُهُن ، وأَبْلَيْنَ فى الحَرْب أحسنَ بَلاءٍ .

ولكنَّ الشقراواتِ الكبيراتِ ظَلِلن يتقدَّمْنَ إلى الأمامِ ، مُستهيناتٍ بكلِّ ما يتعرَّضْنَ له من أخطار ، وقد أصْرَرْن على اقتحامِ صُفوفِ العدوِّ وإذلاله ، كلَّفَهُنَّ ذلك ما كلَّفهن ، من جهاد وفِداء .

وصاح صائحُهُنَّ — من القادَة — وهُنَّ يتسلَّقْنَ قِمَّة التلَّةِ ، ويعتَلِين ذِرْوَةَ الرَّبْوَةِ :

« نَظِّمْنَ صفوفكن — ياحَفَدَةَ « الشَّيْصبانِ » — واستَلْهِمْنَ مَضاءَ عزمِ أسلافِكُنَّ . ولا تنسَيْنَ نصيحةَ جَدِّنا الأكبر : « الشيصبانِ » العظيمِ ، فقد أصبح النصرُ مناقريبًا ، ولم يَبْقَ عليكن إلّا خُطُواتٌ يسيرةٌ تَقْهَرْنَ — فى إثْرِها — العدوَّ ؛ وتنتصِرْن فى هذه المَعْركَةِ الحاسِمَةِ ! »

فسارتِ الشقراواتُ ، زاحفاتٍ على أعدائهن ، مُرَدِّداتٍ نشيدَ الحَرب الذى حفِظْنَه من أسلافهن ، عن جَدِّهِنَّ الأوّلِ : « الشيصبانِ » الأكبرِ .

٢٢ — نشيدُ الشَّيْصَبان

وكانتْ جماعاتُ النِّمال الشُّقْرِ ، جادَّةً فى طريقِها إلى وادِى الأعْداء ، وهُنَّ يُنْشِدْنَ النَّشيدَ التَّالِىَ مُتحمِّساتٍ :

« يا بَناتِ الشَّيصَبانْ : قَدْ أَتى يَوْمُ الطِّعانِ
فتوافَدْنَ أُلوفَا وتجَمَّعْن صُفُوفَا
واعْتَلِينَ الهَضَباتِ واقتَحِمْنَ العَقَباتِ
ثم فَرِّقنَ الأعادِى بَدَدًا فى كلِّ وادى !

. . .

يابناتِ الشَّيْصَبانِ : قدْ أتى يومُ الطِّعانِ
فليكُنْ يومَ فخارٍ وابتهاجٍ وانْتِصارِ
لاتوانَيْنَ ، فإنَّا — إنْ توانيْتُنَّ — ضِعْنا
فلْتدُكْدِكْنَ الْجبالا ولْتُذَلِّلْنَ المُحالا !

• • •

يا بناتِ الشَّيصبانِ : قد أتى يومُ الطِّعانِ
فتَسَنَّمْنَ الوِهــادا وتناسَيْنَ الرُّقــادا
وتَسامَيْنَ لِمَجْــدِ وتَـذَرَّعْنَ بِجِــدٍّ
وتقَحَّمْنَ السُّهــولا وتدافعْنَ سُيــولا !

• • •

يابناتِ الشَّــيْصَبانِ قد أتى يومُ الطِّعانِ
جَدُّ كُنَّ الشيْصَبانُ مَجْدُهُ ليسَ يُهانُ :
إنَّنـــا نَحْمِى لِواءَهْ فَلْنَمُوتَنَّ فِـــداءَهْ
ولْنَمُوتَنَّ كراما ذَلَّ مَنْ يَخْشَى الحِماما !»

٢٣ — انتصارُ الشقراواتِ

وسُرعانَ ما اقتحمتِ الشقراواتُ وادىَ الأعداءِ ، باحثاتٍ عن أطفالِهن الصغارِ ، وقد تمَّ لهن الظَّفرُ . وعُدْنَ ، وفى فَمِ كلِّ شقراءَ منهن دُودةٌ ، أو طِفلٌ ، من ذَرارِىِّ النِّمالِ السوداءِ ، وهنَّ أعزُّ ما لديهنَّ فى الحَياةِ .

وهٰكذا انتهت تلك الحربُ الطَّاحنةُ بانْدِحارِ السَّوداواتِ ، وانتصارِ الشَّقراواتِ ، وامتلأتْ ساحةُ القِتالِ بالقتلَى والجرْحَى ، منَ السوداواتِ ، وتكدَّسَتْ أشلاؤُهُنَّ أكداساً .

ألا قبُحَت الحرْبُ ! وقبُحَ كلُّ مَنْ يَعملُ على إثارتِها وإلْهابِ نارِها !...

٢٤ — مجمعُ النملِ الأسْوَدِ

وعادتْ جُيُوشُ الشقراواتِ فَرِحاتٍ بانتصارِهن ، وقد حَمَلْن أسلابَ أعدائِهن ، ورجَعْن بغنائمِهن الثمينةِ . ولو رأيْتمُوهُن — أيها الأطفالُ الأعزاءُ — لرأيتُم آلافاً منَ القشورِ البيضاءِ ، سائرةً خِلالَ الحشائشِ الخضراءِ .

وما أظُنُّكم تَجْهلون تلك القشورَ البيض ، فهى ذَرارِىُّ النِّمالِ السُّودِ التى حمَلَتْها الشقراواتُ إلى وادِيهنَّ البعيد .

ونعودُ إلى « أمِّ مازنٍ » لِنَرَى ما فعلَتْهُ فى أثناءِ هٰذه المعركةِ الطاحنةِ .

والحقَّ أقولُ — أيها القراءُ الأعزَّاء — إنَّ هٰذه النملةَ الباسلةَ قد استبسلَتْ فى الدِّفاعِ ، واستماتتْ فى سبيلِ الذَّوْدِ عنِ الوطنِ والعشيرةِ ، وقاتلتْ فى الصَّفِّ الأولِ ، حتى خرَّتْ صريعةً فى المَيْدانِ ، ورقدَتْ بين الأشلاءِ ، وهى إلى الموتِ أقربُ منها إلى الحياةِ .

وبعدَ قليلٍ جاءت السوداواتُ باحثاتٍ عنِ الجرحَى ، واستيقظتْ «أمُّ مازن» من رقدَتِها ، فجمجمتْ تقولُ بصوتٍ ضعيفٍ : « تُرَى : أينَ أنا ؟ »

ورآها صواحبُها ، وهى تُحَرِّكُ إحدى أرجلِها ، فتقدَّمت إحداهُن إليها ، وصاحتْ قائلةً :

« آه ! هاهى « أمُّ مازنٍ » ! يا عزيزاتى ! فهلمِّى أيتها الرفيقةُ الباسلةُ ! »

فنهضَتْ « أمُّ مازنٍ » من رقدَتِها . وبذلتْ جُهدًا شديدًا ، حتى استطاعَتْ أن تقِفَ على أقدامِها ، وظلَّتْ تُحَرِّكُ أرجُلَها لِتتفقَّدَها . فلمَّا اطمأنتْ بوُجودها ، حمِدَت اللهَ علَى السلامَةِ . وقالتْ : «شكراً للهِ علَى أننى لم أُصَبْ بسوءٍ ، ولم تُكسَرْ لى قدمٌ واحدةٌ ، فى هٰذه الحربِ الطاحنةِ . »

ثُمَّ سارت مستندةً إلى إحدى رفيقاتِها ، ومازالت تتوكَّأُ عليها حتى وصلتْ إلى قاعةِ الاجتماعِ ، فرأتْ جمهرةً منَ النِّمالِ تتحدثُ وتُناقشُ مناقشاتٍ حادَّةً .

وسَمِعتْ إحداهُنَّ تقولُ :

« هل وضَعْتُنَّ حارساتٍ عند السِّياجِ ، قبل كلِّ شىءٍ ؟ »

فأجابتها نملةٌ أخرى : « لم يَفُتْنا شىءٌ من ذٰلكِ — بلا رَيْبٍ — فقد وَقَفْنا جماعةً مِنَ الحارساتِ فى الجَبْهةِ الأخرى . وإنى جدُّ واثقةٍ مِن أنَّ هٰذه المَأساةَ المُفجِعةَ لن تتكرَّرَ بعد اليومِ . »

فقالت نملةٌ ثالثةٌ : « لقد جاءت «بنتُ الشيصبان» . سُعِدَ مساؤكِ ، أيتها الأختُ العزيزةُ . خبِّرينا ماذا تحملين ؟ إنى أراكِ تحملين طِفلاً !

ياللهِ ! لقد حسبناكِ فى عِدادِ الهلْكَى ، أيتها الرفيقة الكريمة ! »

فقالت « بنتُ الشيصبان » بعد أن وضعتْ طفلَها أمامهُنَّ :

« أسعد اللهُ مساءكن يا عزيزاتى ! ألا ترين أننى لم أُضِعْ وَقْتِى عَبَثًا ؟ فقدِ انسلَلْتُ فى أثناء المعركةِ ، وخبَّأتُهُنَّ فى ذٰلكِ الثقبِ الأمينِ ، الذى فى جِذْعِ شجرةِ البُرقوقِ . »

فقُلْنَ لها : « أىَّ شىءٍ خبأتِ فى جذعِ البُرقوقةِ ، يا بنتَ الشيصبانِ ؟ »

فقالت مزهُوَّةً فَخُورةً : « لقد خبأتُ الأطفالَ الأعزاء ! فقدِ انسللتُ إلى وادينا خمْسَ مرَّات ، وحملتُ فى كلِّ مرةٍ طفلاً ، وها هو ذا أحد الأطفالِ ! فتعالَيْنَ معى ، لِنُحْضرَ الباقينَ . »

فارتفعت أصواتُ الثّناءِ والإعجابِ بها من كلِّ صَوْبٍ ، وقُلْنَ لها :

« يا لكِ من مُرْضِعٍ نبيلةٍ ، يا بنتَ الشيصبان ! فَلَكِ مِنَّا أطيبُ الشُّكرِ، وأجلُّ الاحترامِ . »

٢٥ — خُطْبَةُ « أمِّ مشغولٍ »

وَأَرادتْ « أمُّ مازنٍ » أن تتعرَّفَ عددَ القتلَى ، فاقترحتْ عَلَى صديقتِها « أمِّ نَوْبَةَ » أن تناديَ الأسماءَ .. ولم تكدْ تفعلُ ، حتى ظهرَ أنَّ عددَ القتلى قد فاقَ كلَّ حُسبانٍ .

وقالتْ « أمُّ نَوْبَةَ » : « ولقد هَلَكَ — فى هٰذه المَوْقِعَةِ الهائلَةِ — كثيرٌ منَ القُوَّادِ ، منهم : العُجْروفُ ، والدُّعْبُوبُ ، والدِّعامةُ ، والْجَفْلُ ، والْجَثْلُ . وهلكَتِ السُّمْسُمَةُ ؛ وهى زَعيمةُ جيشِ الأعداءِ، وقائدةُ جُموعِهم . وقُتِلَ جُمهورٌ ضخمٌ من الدَّبى : وهى تلك النِّمالُ الصغيراتُ ، العزيزاتُ علينا ، كما هلكتْ جماعَةٌ من السَّماسِمِ ، وهم إخوتُنا منَ النِّمالِ التى تعيشُ فى البساتينِ . ولم يكنْ لها يدٌ فى هٰذه الحَربِ الطاحنَةِ ، ولٰكنها ذهبتْ فريسةً بلا ثمنٍ . ولقد رأيتُ نَمْلةً مستلقيةً على ظهرِها ، رافعةً قوائِمَها إلى السماءِ ، وهى تدعو اللهَ أَنْ يَثْأَرَ لنا منَ الشَّقْراواتِ الجائراتِ ، اللائى بَغَيْنَ ، واعتَدَيْنَ علينا أشنعَ اعتداءٍ .

فسألْتُ اللهَ أن يُجيبَ دعاءَها ، ويَنتقمَ لَنا مِنَ القومِ الظَّالِمين . »

فوَجَمتِ النِّمالُ السوداءُ ، وحزنَتْ لِمَصارِعِ أَخَواتِها .

وصاحَتْ « أمُّ مازنٍ » متألِّمَةً :

« لقد فَتَكَ بنا النملُ الأشقرُ فتكًا ذريعًا ، وفَجَعنا فى أعزِّ صواحِبنا، وأبرِّ صديقاتِنا، وأكْرَمِ أهلِينا علينا . ولقد أثارَها علينا غارةً شعواءَ، وذَبحَ من السوداواتِ عددًا لا يُحْصَى، ولم يَبْقَ فى غُرَفِ المُرَبِّياتِ أحدٌ. فَلْنُشَيِّعْ قتلانا غدًا — فى احتفالٍ مَهيبٍ — إلى مقبرَتِنا التى خَلْفَ السِّياجِ . »

ولمَّا أتمَّت « أمُّ مازنٍ » كلامَها ، ساد الصمتُ والحُزْنُ ، ساعةً منَ الزمانِ ، ثم انبعثتْ أصواتٌ — من أرجاءِ القاعَةِ — تقولُ :

« اِصْغَيْنَ إلى خطابِ أُمِّ مشغولٍ ! »

فتلفَّتَتِ النِّمالُ إلى « أُمِّ مشغول » ، وهى نَمْلةٌ عامِلةٌ محترمَةٌ ، وقد صَعِدَتْ عَلَى ظَهرِ نملةٍ أخرى لِتُسْمِعَ رفيقاتِها صوتَها ، فى وضُوحٍ وجلاءٍ .

وأرْهَفَتِ النِّمالُ آذانَهُنَّ لسماعِ ما تقولُه « أُمُّ مشغول » .

وقد أنشأت تقول : « أبنائى ، وبناتِ أخَواتى ، وحَفَدَتِى الأعزاءَ :

إنَّ هٰذا اليومَ لن يُمْحَى من ذاكرتِنا ، ما حَيِينا ؛ فهو يومُ حُزنٍ وحِدادٍ ، وقد تَبَدَّلَ فيه هناؤُنا شقاءً ، وانقلبَ فرحُنا ترحًا .

ولقد أقمْنا رَدَحاً منَ الزَّمن ، فى هذا الوادى الخَصيب ، وقضَيْنا فيه عهداً سعيداً ، مَرَّ بنا كما تَمُرُّ أشهى الأحلامِ . ثمَّ دالَتْ دولَتُنا ، ورمانا الدهرُ — فى هذا اليومِ الأسودِ — بفادِحِ الخطوبِ والمِحَنِ . . . فقد رُزِئنا فى بناتِنا العزيزاتِ وكُنَّ مصدرَ سرورِنا وإيناسِنا ، ومَرادَ آمالِنا وأمانِيِّنا.

لقدقَضَيْنا الصباحَ فى مَرَحٍ وسُرورٍ ، فى هـذا الوادى الجَميلِ ، الحَبيب إلى القُلوب . وها نَحْن أُولاءِ : نَقْضى المَساءَ حزيناتٍ ، مُوجَعاتٍ مُقَرَّحاتِ العُيونِ .

لقد أغارتِ الشقراواتُ عَلَى ديارِنا ، وانتَهَبْنَ ماتَرَكْنا ، مِنْ بَيْظٍ وَأَطفالٍ أعِزَّاءٍ علينا ، هم مناطُ آمالِنا ومَعْقِدُ رَجائنا ، واتَّخَذْنَهُنَّ عبيداً لَهن وأرِقَّاء ، ليؤدّينَ — فى قريةِ الأعداءِ — أعمال الخَدَمِ والعبيدِ ، وليس لنامِن أملٍ فى عودةِ أبنائنا بعد اليوم ! . . . »

فبكتْ بناتُ « الشَّيْصَبانِ » جميعاً ، حين سَمِعنَ هذه الكلماتِ الدامية . . .

وصمتَتْ « أُمُّ مشغولٍ » لَحَظاتٍ يسيرةً ، ثم استأنَفَتْ ، قائلةً :

« ليستْ هذه أولَ مرة يَدْهَمُنا فيها أولئك الأعداءُ . بل هى المَرَّةُ الثالثةُ ، فيما أعلمُ . فقد أَلِفَتِ الشقراواتُ الخَبيثات أن يُغِرْنَ على وادينا ،

ويَنتَهِبْن أسلابَنا ؛ ويُخَرِّبْنَ بُيُوتَنا ، ويستعبِدْن أبناءَنا وبناتِنا .

فما حيلَتُنا الآن ؟ ليس لنا من حيلَةٍ إلا أن نُصلحَ ما خَرَّبَتْه الشقراواتُ من قريَتِنا ، و . . . »

فانبعثَ صوتٌ ضعيفٌ ، من آخرِ القاعةِ ، يقول : « عُذْراً — يا سيدتى أُمَّ مشغول — واغْفرى لى مقاطعتى إياكِ !

لقد تهدَّم نصف بيتنا . ويُخيَّلُ إلىَّ أننا غيرُ آمنين على حياتنا ، وحياةِ ذَرارينا . ولن نَشْعُرَ بُطمَأنِينَةٍ فى هذا الوادى ، فقد أَلِفَتِ الشقراواتُ أن يُغِرْن عليه ، ويفاجئننا بأحداثهنَّ ، بين حينٍ وآخرَ . ألا يَجْدرُ بنا — إذَنْ — أن نبحثَ عن مكانٍ آخرَ ، نتخذهُ مقرّاً لنا فى غير هذا الوادى؟ »

فَصاحت النمالُ — كلُّها — قائلةً : « لقد أحسنتِ وأصبتِ ، وبِفَصْلِ الخطاب نَطَقْتِ ! »

٢٦ — فى الوادى الجديد

فنهضت « مُ مازن » قائلةً : « لقد اهتديتُ — فى هذا الصباحِ — إلى وادٍ خصيبٍ ، فى موقعٍ بديعٍ ، لا يبعُدُ عنا كثيراً ، وهُو فى آخرِ غابةٍ صغيرةٍ ، وأرضُهُ فى هذه الأيامِ طينيَّة رطبةٌ ، فهى أصلحُ الموادِّ لبناءِ جُدرانِ بيوتِنا ؛ لأنها قويةٌ لا تَهُدُّها الرياح .

ونحن — الآن — فى فصل البُرقوقِ ، ولدَيْنا مُتَّسَعٌ من الوقت ، لتشييدِ دُورِنا ، قبل حلول فصل الشتاء . »

فانبعثتْ أصواتٌ عِدَّةٌ ،قائلةً: «لقد أصبْتِ فى اقتراحِكِ، «يا أمَّ مازن» ، ونحن على رأيكِ فيما تقرِّرينَ . »

ثم استأنفَتْ «أمُّ مشغولٍ» : «ما دام اقتراحُ أم مازنٍ» قد لَقِىَ منكنَّ قبولاً حسنًا، فإنى أنصَحُكنَّ ألا تُضِعْنَ شيئًا من الوقتِ ، فيما لا طائلَ تحتَه .

وأرى أن تذهبَ طائفةٌ منكنَّ مع «أمِّ مازن» فى صباحِ الغَدِ ، عندما تُشرِقُ الشمسُ،وتُبلِّلُ المُرُوجَ بالنَّدَى، لتتعرَّفْنَ موقِعَ الوادى الجَديدِ.

ولا يفوتُكنَّ — أيتها العزيزاتُ — أنَّ بناءَ بيت النملِ ليس من الهناتِ الهيِّناتِ . فهل عرفتُنَّ ماذا يَجْدُرُ بكن أن تَعملْنَه، منذُ الآن ؟ »

فتقدَّمَتْ «أمُّ نوبة» إلى وسَط القاعة ، ثم قالت :

« إنى أعلمُ ذلكِ حقَّ العلم . فإن أولَ واجبٍ علينا ، هو أن نَحْفِرَ فى الأرضِ حُفَرًا واسعةً ، حيثُ نُنشئُ الغرفَ ، ونُشيِّدُ الأرْوِقَةَ . »

فقالت «أمُّ مشغولٍ» : «صدقتِ ، يا «أمَّ نوبةَ» .
فهل وعَيْتُنَّ ذلك ، أيتها الصغيراتُ العزيزاتُ ؟
ولا يفوتكن أنْ تُنشِئْنَ — فى بيتنا الجديد — حجُراتٍ لتربية

الأطفال ، علَى غرارِ الحجُراتِ التى أنشأناها فى بيتِنا القديم . وليكنْ فيه قاعةٌ كبيرةٌ للاجتماعِ . »

فقالت «أمُّ نوبةَ» : «نعم . يَجْدُرُ بنا أن نشيِّدَ القريةَ الجديدةَ ، علَى نَسَقِ تلك القريةِ القديمةِ ، فنجعَلَ فيها تعاريجَ تُعَوِّقُ سيرَ المطرِ عن دخول القريةِ ونشيِّدَ طابقَيْنِ : واحدًا فوق الآخر، حتى نَأمَنَ على ما نَدَّخِرُهُ فى قريتنا من البللِ ، ونشيِّدَ فيها منازلَ ودهاليزَ وحجُراتٍ معلَّقةً ، لِنَملأَها حبُوبًا وذَخائرَ ، لفصلِ الشتاء القادمِ . »

فقالت «أمُّ مشغول» :

« لقد وهبَنا الله — سبحانه — آلاتٍ ثمينةً ، لأداء هذه الأعمال الجليلة . فلتحفرْ كلُّ واحدةٍ — منكُنَّ — أرضَ القريةِ الجديدةِ ، بقوائمِها السِّتِّ، ولا تُضِعْنَ شيئًا من أوقاتكنَّ عبثًا . »

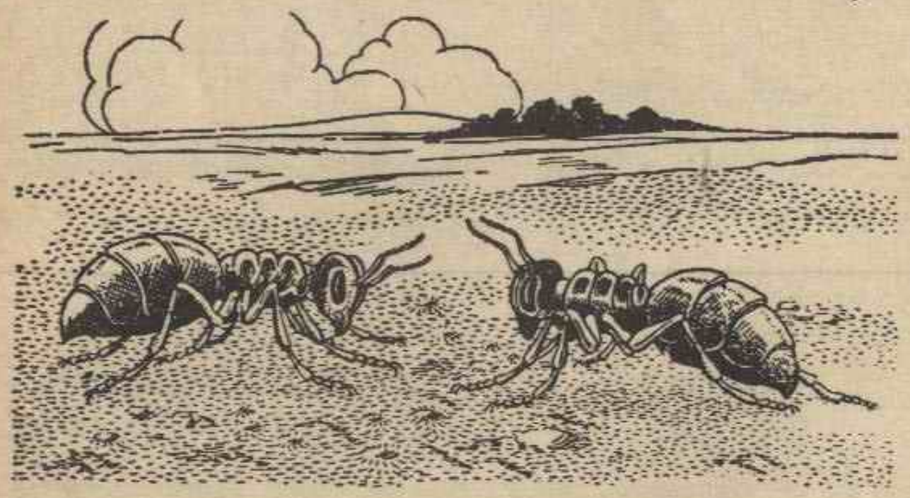

فصاح شبابُ النمل :

« السَّمعُ والطاعةُ لكِ ، يا «أمَّ مشغول» ! »

٢٧ — خاتمة القصة

ثم استأنفت « أمُّ مشغولٍ » قائلةً :

« لَقَدْ حانَ وقتُ التَّفَرُّقِ ، بعد أَن جَنَّ الليل ، وبقيَتْ لى كلِمةٌ ، أُفضِى بها إليكُنَّ ، قبل أَن يَنْفَضَّ هذا الاجتماعُ الحاشِدُ :

لقد كانت فِكْرةُ الهجرةِ ، من اقتراحِ « أُمِّ مازنٍ » : تلك النَّمْلَةِ الصغيرةِ ، التى فاقتْ — على صِغَرِها — كُلَّ نِمالِ القريةِ ذَكاءً .

وَعِنْدِى أَنها جديرةٌ أَن تصبِحَ مُهندِسَةَ البيتِ ، ومديرةَ العملِ فى إنشائه . فماذا تَرَيْن فى هذا ، يا بناتِ الشيصبانِ ؟ »

فصاحتِ النِّمالُ كلُّها ، وهى ذاهبةٌ إلى غُرُفاتِ النومِ :

« أَصَبْتِ ، « يا أُمَّ مشغولٍ » ، وَوُفِّقتِ إلى الصَّوابِ ، وأُلْهِمتِ الرُّشْدَ والسدادَ . فلتحيَ « أُمُّ مازنٍ » ! فلتحيَ « أُمُّ مازنٍ » ! »

القصة التاسعة : العنكب الحزين

إلمامة بالنمل

« قبسنا هذا المقال النفيس من دائرة المعارف الفرنسية ، ليكون مرجعاً للمدرس فى تدريس قصة « أم مازن ».

خواص النمل

النمل حشرات صغيرة من الفصيلة المجنحة ، وهو اجتماعى ، شديد الألفة بطبعه ، ومتى استثنينا منه أنواعاً قليلة شاذة ، رأينا سواده يخضع لهذا القانون العام ، وتنطبق عليه هذه الصفات .

وتأتلف كل جماعة من النمل عادة من أنواع ثلاثة : النمل العامل ، والذكور ، والإناث المجنحة . تتلخص صفاته وخواصه العامة فيما يلى : وجسم مستطيل يتفاوت طولا وقصراً ، ولون غامق يتألف من أصفر وأحمر وأسمر وأسود ، أو مزيج من هذه الألوان كلها أو بعضها بنسب متفاوتة .

أما رأس النمل ، فهو يختلف تبعا لاختلاف أنواعه وفصائله ؛ وهو قطعة مفصلية ، ذات فتحتين ، إحداهما : فتحة صغيرة ، عند نقطة اتصال الرأس بالظهر ، وتسمى : الفتحة الخلفية . والثانية من الأمام ، وهى فم النملة ، وبها فكان قويان ، يتألف منهما — على الأغلب الأعم — شكل مثلث . وكلاهما محدد ، تشبه حافته الداخلية حد المنشار .

ولهذين الفكين — عند النمل — شأن أى شأن ، فهما عظيما الخطر ، لأنهما سلاحه القوى ، وعتاده الثمين الذى يستعين به على العمل ، فهو يستخدمه كما نستخدم المنشار والمقص والكماشة ، لنزع الأشياء وتمزيقها ، وكما نستخدم اليدين فى حمل الأثقال وما إلى ذلك . وليس من عمل الفكين مضغ الأغذية ، فإن النمل لا يتغذى بغير المواد السائلة أو شبه السائلة ، وليس فى قدرته أن يزدرد طعامه — كما نفعل — ولهذا نرى أن هذين الفلكين يؤديان أعمالا أخرى — كما أسلفنا — غير المضغ .

أجسام النمل

وعيون النمل منحنية ، وقلما تكون مستديرة ، أو منتظمة أى انتظام . وعيونه الملس على شكل مثلث عند الذكور والإناث . ويندر أن نراه عند العاملات التى لا تكاد ترى فى رأسها — أحياناً —

غير واحدة فى منتصف جبهتها .

أما قرونه الناتئة ، فهى متحركة إلى انحناء ، ترتكز على الحافة الداخلية لشرايين الجبهة .

ولا توجد الأجنحة إلا عند ذكور النمل وعذاراه . وبطنه منقسم إلى سبع حلقات للذكور ، وست للإناث والعاملات . وتنتهى كل رجل من أرجل النمل بخمسة أجزاء ، فى آخر جزء منها إبرتان بسيطتان محددتان . يفصلهما شعر قصير كثيف . ويتميز النمل المجنح ، الذكر عن الأنثى . ببطنه ذى السبعة مفاصل . ورأسه الصغير الكروى ذى العيون الملس . وللإناث أجنحة كذلك . ولكنها تزايلها بعد الإخصاب ، سواء اجتثتها بنفسها ، أو انتزعتها منها العاملات .

وتمتاز النمال العاملة بتجردها من الأجنحة . وتشرك الإناث فى أن فى طرف بطنها غدتين سميتين ، تفرزان حمض النمليك . وبعضها مسلح بإبر ملس أو محددة ، ينبعث منها السم فى الجرح الذى تحدثه . وقلما توجد هذه الإبرة عند جمهرة كبيرة من النمال الأخرى . فإذا وجدت فهى بسيطة تافهة لا خطر لها ، وإن كانت تنفث السم إلى مسافة بعينها ، متى لمست النملة عدوها بطرف بطنها .

طوائف النمل

وفى كل واد من وديان النمل نرى العاملات أكثر ما فى الوادى عدداً . بالقياس إلى الذكور والإناث التى لا تلتقى معاً إلا فى فترات بعينها من السنة ، مع استثناء الإناث المخصبات من هذه القاعدة . وثمة فرق كبير بين النمال فى أجسامهن . فقد يدق بعضها ، ويصغر جسمه ، ويتناهى رأسه فى الضآلة . بالقياس إلى جسمه ، بينما يكبر جسم بعض النمال الأخرى . ويضخم رأسه ، ليتناسب مع حجم جسمه .

وفى وادى النمل تختلف أعمال العاملات وأعباؤها . فيناط ببعضها بناء الغرف والأجحار ، ويناط بالبعض الآخر تربية الديدان الصغيرة ، وما إلى ذلك من الأعمال .

أما النمال الكبيرة الرأس ، فإن لها قروناً قوية ، ومن سوادها يتألف جيش النمال الذى يحمى الوادى من غارة المعتدين . وقد أطلق على هذه الفئة من النمل . اسم : الجنود . وهى تقوم بحروب وانتصارات رائعة على أعدائها ، وتأتى بالأسرى إلى واديها فتستعبدها ، وترهقها بكل ما تحتاج إليه فى واديها من الأعمال .

ويختلف النظام الغذائى للنمل ، سواء فى ذلك الأطفال الناشئون والشيوخ الفانون ،

اختلافاً عظيماً . ولا يشذ عن هذه القاعدة إلى أفراد غاية فى الندرة ، لا تبالى أن تأكل ما تلقاه فى طريقها من الأعشاب والمواد الحيوانية .

ومهما يكن من أمر ، فإن فم النملة — بطبيعة تكوينه — لا يسمح لها أن تتغذى بغير الأطعمة السائلة — أو نصف السائلة — التى تلعقها ، أو تمر عليها لسانها حتى تلينها ، وثمة لا تستطيع أن تأكل الأطعمة الجامدة . وقصارى ما تفعله بها أن تمزقها بفكيها ، ثم تمتص ما تحتويه — فى أثنائها — من عصير .

أما أشهى غذاء تؤثره النمال ، فهو أحشاء القنائص ذات العصير ، واللحوم الطرية ، ورحيق الأزهار ، ولب الفواكه الناضجة المشققة ، والمواد العسلية واللزجة ، والأشربة ، والسكر على اختلاف أنواعه ، وما إلى ذلك من ألوان الأغذية .

مزايا النمل

ولقد لفتت مزايا النمل — منذ أقدم العصور — جميع الباحثين الذين عنوا بدراسة الحيوان والحشرات ، واسترعت انتباههم ، وآية ذلك ما ورد فى الأقوال المأثورة عن الأنبياء والفلاسفة الأقدمين فى العصور الغابرة السحيقة ، فقد تجلى إعجابهم بمزايا النمل ، وإكبارهم مواهبه وافتتانهم بمثابرته وجلده ، وقدرته على العمل ، وذكائه ، وما ألهمه من تعرف بعضه بعضاً ، وتبصره وبراعته فى دقائق الهندسة ، واضطلاعه بجلائل الأعمال .

وقد نوه « شيشرون » — فى العام السادس بعد المائة قبل الميلاد — بهذه الميزات الباهرة ، وسار على منهاجه كثير من العلماء ، وأقنعتهم بهذه الحقائق بحوثهم الصادقة الموثوق بها ، وتجاربهم التى أجروها فى القرون المتعاقبة ، حتى أصبحنا اليوم نؤمن بصدق هذه المزايا إيماناً وثيقاً لا يتسرب إليه الشك ، ونكبر ذكاء النملة وذاكرتها العجيبة . التى تهديها إلى تعرف بعضها بعضاً ، وتبادل المراسلات فيما بينها ، والتكاتف على أداء الواجبات والفروض المشتركة التى تضطلع بها جميعاً .

مساكن النمل

وتعيش أسراب النمل كلها — إذا استثنينا منها بعض شواذ نادرة — فى مساكن مشتركة ، يطلق عليها اسم : وادى النمل ، وهى — على الأغلب الأعم — مؤلفة من طبقات عدة ، ذات أروقة ، وغرف للتهوية ، وغرف للفقس وتربية البيض والعذارى ، وفى بعض الأحايين ترى فيها مخازن للزاد .

وقد قرر أحد العلماء عام ١٨٨٥ فى كتابه عن النمل ، ما يلى :

إن فن النمال — فى بناء مساكنها — يختلف باختلاف أجناسها ، فإن لكل نوع بعينه طريقة بعينها ، فى بناء بيته وتنسيقه . وتستطيع العين المجردة دائمًا أن تميز النملة العاملة ، التى تحفر الغرف والأروقة والمساكن . ومما يسترعى الانتباه : شخصية المهندس الذكى من النمال ، وطرائقه فى هندسة البيوت ، وهى تخالف طرائق اليعاسيب والنحل فى بناء خلاياها . فإن مهندسى النمل لا تعمل بالمثلث والبيكار ، ولا تعنى بقياس الخطوط المستقيمة والزوايا . بلى هى تعمد إلى مسايرة ميلها وإلهامها ، والاستسلام لغريزتها وابتكارها . وهى ترتجل — من فورها — نظام البيت الذى تسكنه ، وتنشئه مبتدعًا على غير نهج مرسوم ، أو خطة بعينها ، أو هندسة مقررة . وثمة نرى غرفها وأروقتها ودهاليزها وسراديبها كثيرة التنوع ، مختلفة الأوضاع ، متباينة الأشكال . ولكن مجموع البناء ، على اختلاف طرائقه وخططه ، مطبوع على الدقة والتناسق . وهو نيم — فى كل أوضاعه — على عبقرية مبتكريه ، وحذقهم فى الهندسة ، وتفننهم فى أساليبها .

وإن دهشتك لتشتد ، ويتعاظمك العجب ، حين تنعم النظر فى أساليب العاملات الصغيرات فى بناء البيوت ، واستعدادها الداخلى ، وتنوع الطرق والمعدات التى تلجأ إليها ؛ إذ تحفر أروقتها تحت الأرض ، وتوصلها بسطحها عند فتحة تعينها ، أو عدة فتحات . وقد تنتهز فرصة سانحة لبناء واديها تحت صخرة منبسطة تتحصن بها . وربما أنشأت على بيتها قبة أو تلة أو ربوة مكونة من مواد مختلفة ، كالحشائش اليابسة وأعشاب النبات وسوقه ، وما إلى ذلك .

ومن النمال ما يحفر الخشب ، أو ينقشه ، ويهيئ غرفه ! بعد أن يصنع عجينة يستعملها فى تنفيذ أغراضه ، وربما عمدت النمال إلى اتخاذ بيتها بين الأخاديد أو الأعشاب المرتفعة ، أو فى ثنايا أوراق الشجر الكثيفة الملتفة ، أو ثقوب الأشجار وفجواتها الطبيعية ، وما إلى ذلك . وقد يصل ارتفاع التلال والكثبان التى تأوى إليها النمال ، وتتخذ فيها بيوتها ، إلى علو متر أو مترين ، من القطر إلى القاعدة . وربما شيدت مرتفعات متماثلة — وإن لم تكن فى مثل هذا العلو — على طول الطريق أو موازية لسياج طويل من الأعشاب . وقد تنشئ مساكنها فى ثنايا الصخور المشقوقة وأسوار المنازل ، وربما أنشأتها داخل البيوت ، أو فى ثقوب الخشب ، أو فى جذوع الأشجار القديمة .

تلاقح النمل

وفى زمن بعينه من كل عام — يختلف تبعًا لاختلاف أنواع النمل — يخرج الذكور من واديهم جماهير وطوائف ، وتخرج الإناث متهيئات للإخصاب فى ذلك الوقت . فيطير الذكور فى أثرها ، ويلتقى الفريقان فى الجو ، ويتم هذا التلاقح — عادة — فى وقت حار .

ومتى كان الذكر أكبر من الأنثى بكثير ، لجأ إلى الإخصاب فى الهواء حيث تحمله الأنثى على ظهرها . فإذا تناسب جسمه وجسمها ، فإنه يقبض عليها ، وهى طائرة ، ثم تتم عملية الإخصاب على الأرض . ولا تلبث عملية التلقيح — عادة — إلا بضع دقائق . ثم يأتى ذكر آخر فيلقح الأنثى نفسها مرة أخرى . ومهما يكن من أمر ، فإن الذكور — بعد أن تتم تلقيح الإناث — تظل هائمة ، تعتسف الطريق على غير هدى ، وقد امتلأت نفسها يأسًا ، وأحست — فى أعماق نفسها — أنها قد أصبحت متبطلة ، عديمة الجدوى . ثم لا تلبث أن يقتلها الغم والأسى ، أو تلتهمها الطيور وسباع الحشرات !

أما الإناث فتهوى إلى الأرض — بعد أن تتم عملية الإخصاب — وتقطع أجنحتها الضعيفة ، ثم تذهب النمال العاملة باحثة عن هذه الإناث ، فتجمعها ذاهبة بها إلى واديها الذى خرجت منه .

وإذا رأينا فى عالم النحل ملكة واحدة مخصبة ، فإننا نرى — على العكس من ذلك — فى وادى النمل كثيراً من الإناث المخصبات ، فى وقت واحد ، ومكان واحد . وهى تعيش جميعًا على أتم وفاق وأسعد عيش ، وتقوم العاملات بخدمتهن والعناية بأمرهن ، من غير أن تميز واحدة منها على الأخرى . وتظل النملة — بعد عملية التلقيح — مخصبة طول حياتها ، فلا تحتاج إلى تلقيح الذكور مرة أخرى . وتظل ثمانى سنوات أو تسعا وهى قادرة على البيض ، دائبة على تنمية عدد المواليد فى قرية النمل بلا انقطاع .

أما بيض النمل فهو يماثل — عند وضعه — حبوباً طويلة بيضًا ، أو صفرًا ، أو غامقة اللون ، ومتى وضعته الإناث المخصبات ، جاءت العاملات فجمعته ورتبته أكوامًا صغيرة . ولا تفتأ تلعقه ، حتى يكبر حجم البيض — بفضل عنايتها — ويشف لونه ، ثم يفقس ، فتخرج من كل بيضة دودة . وهذه الديدان مختلفة الأشكال تبعًا لأنواعها . ولكنها — على تباين أجناسها — عمى ، بيض ، فى جسم كل منها اثنا عشر حزًا ، تبدو للفاحص المتأمل ، ورأسها أصغر

من جسمها بكثير ، وهو مائل إلى الأمام .

أما قسمها الأعلى ، فهو ضيق مقوس ينتهى بطرف دقيق . وأما أسفل جسمها ، فهو مستدير منتفخ قليلا . وليس فى استطاعة هذه الديدان أن تتغذى إلا إذا تعهدتها العاملات بالغذاء ، ونفثت فى أفواهها عصيرًا مغذيًا مما تدخره فى بيوتها لهذه الذرارى الناشئة .

ولا تقتصر العاملات على هذا القدر من العناية ، بل تزيد عليها ، فتعنى بتنظيف هذه الديدان ، ونقلها من مكان إلى آخر فى أرجاء الوادى ، فى الأوقات المختلفة من النهار ، لتقيها غوائل البرد والرطوبة ، وتعرضها لأشعة الشمس الحارة التى تكسب أجسادها الحياة والقوة .

ومتى اجتازت الديدان دور النمو ، استحالت إلى عذارى . ولن تتم هذا الدور قبل أن تنقضى عليها فترة تتفاوت بين شهر وتسعة أشهر . فإذا تم نماؤها ظهر جسمها عاريا ، أو ملفوفًا فى قشرة حريرية . تحوى — فى أثنائها — تلك الحشرات كاملة .

جماعات النمل

وجماعات النمل — فى أغلب حالاتها — جماعات بسيطة مؤلفة من أفراد متماثلين . وربما رأيت أفرادًا من النمل متبطلين لاصناعة لهم ، ولا عمل يشغلهم ، وليس فى قدرتهم أن يسهموا — مع أبناء جنسهم — فى الاضطلاع بعبء من الأعباء ، فهم لا يكلفون أنفسهم عناء البناء أو تعهد الديدان بالتربية . وقد يشتد بهم العجز والقصور ، حتى يعجزوا عن تغذية أنفسهم . وثمة نشأت حاجتهم إلى مساعدات وخادمات يقمن بأداء الأعمال المنزلية فى وادى النمل ومساكنه . وقد حفزتهم هذه الحاجة الشديدة الملحة إلى الإغارة ، لجلب الأسرى واستعباد الأرقاء . وهى لا تألو — فى سبيل ذلك — جهداً ، وتعنف وتشتد فى تحقيق رغباتها . فتستولى على العذارى ، وتغير على الديدان التى لم تخرج بعد من غلافها ، فتنقلها إلى مساكنها . ولا يلبث النمل الصغير أن يخرج من قشوره ، ثم يصبح طوع إرادة سادته المغيرين ، ويلبى أوامرهم ورغباتهم بلا تردد ، من غير أن يعرف أنه قد قسم له أن يكون فريسة اعتداء الجائرين ، وجشع المستبدين .

وهذه الطائفة من الجماعات النملية الغريبة ، يروى لنا التاريخ عنها غرائب خطيرة ، ويحدثنا عن عجائب البيوغرافية النملية التى تبده الباحثين الذين يطلقون عليها «جماعات النمل المختلطة» . وإنما أسموها كذلك ، لأنها مؤلفة من الرؤساء وأتباعهم من الأرقاء

المستعبدين ، حيث يعيشون فى واديهم على أتم وفاق .

وترى فى ذلك الوادى — عادة — نملة أو جمهرة من النمال المخصبات ، وإلى جانبهن العاملات ، فإذا حان فصل النتاج رأيت النمال المخصبة من الجنسين كليهما .

أما النمال التابعة المستعبدة ، فليست على الحقيقة — إلا عاملات ، لا هم لها إلا خدمة النوع ، والتفانى فى أداء ما تحتمه المصلحة ، وتوجيه نشاطها ومهارتها إلى خير هذه المستعمرة ، وخدمة الجماعة النملية ، دون أن يكون لها ، فى ذلك كله أى نفع ذاتى تصيبه من هذه الجماعة.

وللنمل صلات وثيقة ببعض الحشرات ، سواء منها ما يعيش فى واديه ، وما يذهب النمل للبحث عنه فى خارج الوادى ، ولعل أحب تلك الحشرات الخارجية إلى نفسه ، هى البراغيث ، التى يمتص النمل من أجسادها سائلا سكريًا ، يرى فيه أشهى طعام يحبه ويؤثره على كل غذاء !

آراء بعض الباحثين

ويقول بعض الباحثين الثقات : إن النمل لا يخزن مؤونة له : وإنه يهلك فى أوقات البرد القارس أو ينتفخ ، ويقرر آخرون من الحكماء عكس هذا ، وقد وصفوا هذه الحشرة — منذ أقدم العصور السحيقة — بأنها رمز التبصر ، ومثال الادخار. وفى هذا الكلام تناقض فى ظاهره ، وإن كان من السهل على الباحث أن يوفق بين هذه النقائض ، ويوائم بينها ، لاختلاف أنواع النمل وأجناسه ، فإن ما يصدق على فئة بعينها من النمل ، لا يصدق على غيرها من الأنواع . فليس من سبيل إلى الشك فى أن نمال المناطق القطبية والمناطق المعتدلة ، تخالف نمال المناطق الحارة أشد الاختلاف .

وإن الباحث المتأمل فى طبائع النمل ليجد — على الحقيقة — أنواعًا منه تسمى : « النمال الحاصدة » . وهى قادرة على تحمل البرد القارس ، والسعى إلى رزقها ، وجلب مؤونتها فى الشتاء ، كما يرى ذلك فى جنوب أوربا . فإن هناك نوعين ، يكدسان فى نهاية الوادى ما يدخرانه من الزاد ، فى غرف خاصة ، تحوى من الحبوب والغلال والنباتات شيئًا كثيرًا . وربما وجد فيها كثير من جنى الحقول والحدائق ، لتكون زادًا للنمل عند الحاجة .

النمل والحرارة

وقد كتب أحد العلماء أن أول ما يمتاز به النمل — من الوجهة الجغرافية — اتساع

مساكنه ، وتعدد جماعاته ، وتنوع فرقه . وأن النمل يكثر تبعاً لاشتداد الحرارة . فكلما دنوت من خط الاستواء ، رأيت ازدياد أنواعه ، حتى لتبلغ فى المنطقة الحارة أقصى حد . ولا تكاد تصل إلى الدرجة الخامسة والستين من خطوط العرض ، حتى تختفى أنواع النمال قاطبة .

وقد اهتدى الباحثون إلى نحو ألفى نوع من النمال منها زهاء مائة وعشرين تقريباً ، تعيش فى أوربا .

أما أقدم نوع عرف من النمال ، فهو النملة الشقراء ، وهى لا تكاد تعرف موطناً لها إلا فى الغابات الكبيرة . وهذه النملة جريئة مشاكسة ، ميالة بطبعها إلى الخصومة واللدد ، مغرمة بالعداء والحرب . وهى تقذف بسمها إلى مسافة بعيدة ، تبلغ ستين سنتيمتراً ارتفاعاً .

وثمة نوع آخر غريب منها ، يستولى على وديان النمل ، بعد أن يطرد ساكنيها . وهناك نمال أخرى تعيش فى جوف الأرض ، ولا يكاد يعرف عن طبائعها شىء .

وهناك نوع من النمال ، يعيش فى إفريقية الاستوائية الغربية (سيراليون والكاب وما يجاورهما من الأصقاع) . وهى عُمْى ، تتحاشى ضوء النهار ، وتكثر من الرحلات ، ولا تتخذ لها مقاماً ثابتاً ، وكلما نزلت مكاناً ، أو حلت محلة ، حفرت لها موئلا تحت الأرض بسرعة نادرة . وهى لا تمشى إلا فى الأيام الغائمة ، التى لا تطلع فيها شمس ، أو فى الأمسيات والليالى . وتؤلف ، فى أثناء سيرها ، كتائب هائلة ، ولا يصدها عن غايتها أى حائل ، ولا تثنيها أى عقبة .

وهذه النمال هى مصدر من مصادر الرعب الذى يستولى على زنوج إفريقية من سكان تلك القرى . فإنها تضطرهم فى أكثر الأحايين إلى مغادرة أكواخهم حين تغير عليهم . ولا يزالون يرقبون ابتعاد كتائبها بفارغ الصبر .

وهناك أنواع أخرى من النمال المنتشرة فى جميع أنحاء العالم لا سيما فى « فلوريدا » و « كلورادو » و « تكساس » و « المكسيك الجديدة » التى استرعت نظر « دارون » ، للمرة الأولى ، فى عام ١٨٦١ ، إذ نشر عنها أحد العلماء ملاحظاته العجيبة ، ثم توالى الباحثون فى درسها بعد ذلك .

وهذه الحشرات عجيبة حقاً ، فهى تستطيع أن تزرع الأرض ، وتبذر البذور وتحصد الزرع ، وتزيل من حقلها كل نبات آخر ، يعوق نمو تلك البذور .

نمال البرازيل

وهناك نمال مفترسة شتى ، كثيرة الأنواع ، تكثر فى « البرازيل » و « جوانة » وجميع أرجاء « أمريكا الوسطى » ، وهى رحالة ، بأوسع ما تعنيه هذه الكلمة . فهى لا تقر فى مكان بعينه . وهى دائبة السفر من جهة إلى أخرى ، فإذا مشت سارت صفوفاً متراصة . وربما أوفدت من كتائبها فرقة كشافة لتستطلع الأرجاء المجاورة ، وتجوس خلالها وتفتش كل ثغرة فيها ، وكل ورقة ساقطة ، وكل عود من الحشائش . فإذا تم لها ما تريد ، بدأت الغارة شاملة عامة ، واقتحمت كتائب النمال كل ما يصادفها فى طريقها ، ومزقت ما يعترضها فى سبيلها من الحشرات والعناكب والديدان ، وربما فتكت أيضاً بصغار الثعابين .

فإذا اعترضها فى طريقها منزل مأهول ، اقتحمته كتيبة منها ، فشردت سكانه كل مشرد ، ولم يروا أمامهم إلا الفرار من هذا العدو الباطش المدمر .

ومهما تحدثه هذه النمال القوية المتوحشة من أضرار ، فإن ما ينجم عن إغارتها من الفوائد ، ينسى السكان كل ما تكبدوه من خسائر وأضرار ، فهى تفتك بالعقارب ، والعناكب ، والبعوض ، والثعابين ، والفأر ، وما إلى ذلك من الحشرات الضارة ، فتطهر المكان الذى تحل فيه تطهيراً . ولهذا يزعمون أن الأهلين — فى بعض هذه الأقاليم — يرقبون إغارة هذه النمال عليهم بفارغ الصبر . ويعدون مقدمها — على ما فيه من أضرار — نعمة وبركة ، وخيراً عميما .

نمل العسل

وهناك نوع من النمال ، يعرف فى بلاد « المكسيك » باسم : نمل العسل ، وهو يعيش فى وديانه : جماعات مؤلفة من الذكور والإناث والعاملات والعاملين . وبعضه يشبه — فى مظهره — النمل العادى ، والبعض الآخر يخالفه ، لانتفاخ بطنه انتفاخاً شديداً ، وإنما كان كذلك لإفراطه فى الغذاء .

أما لون بطنه فهو شفاف عنبرى ، وهذا النوع بطىء الحركة ، لا يكاد يتحرك من مكانه . فهو يظل جامداً ملتصقاً بعضه ببعض تحت الأرض . وفى بطون هذه النمال شراب سكرى ، غير مبلور ، يماثل طعمه العطرى طعم عسل النحل ، ويقبل الهنود المكسيك على هذا الشراب السكرى ، فى شراهة عجيبة ، ويتحلبونه فى أفواههم ، كأشهى غذاء ، ويمزجون به بعض أطعمتهم لتكون من أفخر أنواع الحلوى .

النَّمْـــلَة

[لَوْحٌ مُخْتارٌ مِنْ كِتابِ « نَهْجِ البلاغَةِ » .]

اُنْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ – فِي صِغَرِ جُثَّتِها ، ولَطافَةِ هَيْئَتِها ، لا تَكادُ تُنالُ بِلَحْظِ البَصَرِ – كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِها ، وصُبَّتْ عَلَى رِزْقِها : تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلى مَسْكَنِها وَتَعِدُّها فى مُسْتَقَرِّها . تَجْمَعُ فِي حَرِّها لِبَرْدِها ، مَكْفُولَةٌ بِرِزْقِها ، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِها (طاقَتِها وَكِفايَتِها) .

* * *

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجارِى أَكْلِها ، فِي عُلْوِها وَسُفْلِها ، وَفِي الْجَوْفِ مِنْ شَراسِيفِ بَطْنِها (أَطْرافِ الْأَضْلاعِ الَّتِي تُشْرِفُ عَلَى الْبَطْنِ) ، وَما فِي الرَّأْسِ : مِنْ عَيْنِها وَأُذُنِها . لَقَضَيْتَ – مِنْ خَلْقِها – عَجَباً ، ولَقِيتَ مِنْ وَصْفِها تَعَباً .

رقم الإيداع	١٩٨٧ / ٢٣٤٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٩٧٩-٧

١ / ٨٦ / ٣٠١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)